

إحسان عبد القدوس

الأحمر
مركز الأهرام
للترجمة والنشر

كأنت صعبة.. ومغرورة



مكتبة ديار مصر المكتبة العربية

www.Tipsclub.net

Amly

كانت صعبة ومفرورة ..

كان المعروف عن ناهد أنها فتاة صعبة .. وكان أبرز ما تعرف به أنها مفرورة .. لم تكن في منتهى الجمال ولكنها كانت جميلة .. ولم تكن في منتهى الذكاء إلى حد العبقرية ولكنها كانت ذكية .. ولم تكن في منتهى الثراء ولكنها لم تكن محتاجة .. ومهما كان رأى الناس فيها فقد كانت معتدة بنفسها إلى حد أن تضع نفسها فوق آراء كل الناس ..

وكانت معتدة بنفسها مستقلة بذاتها حتى بالنسبة لأبيها وأمها .. فقد كان من المستحيل أن يفرضاً عليها أمراً ولكنها عودتهما على أن يحاولا اقتناعها بما يريدان .. وعودتهما على أن يقبلا اعتذارها إذا لم تقنع .. ففي التعليم مثلاً لم تكن تخضع للمدرسة التي يختارها لها والدها حتى منذ أن كانت صغيرة .. إنها هي التي تتعلم وليس والدها .. ومن حقها أن تكون هي التي تختار ما تريد أن تتعلمه وتختار المدرسة التي تتعلم فيها .. وكانت تنتقل من مدرسة إلى مدرسة ثم اختارت بعد أن شبت أن تلتحق بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية رغم أن والدها لم يكن يستطيع أن يرى لها مستقبلاً من وراء هذه الكلية .. ولكنه استسلم فقد كانت دائماً ناجحة في تحقيق ما تختاره .. وقد نجحت في التعليم العربي .. والتعليم الفرنسي .. والتعليم الانجليزي .. ثم التحقت بمدرسة للتعليم الألماني .. إنها تختلف عن كل البنات .. فليس لها طبيعتهن .. ولا دوافعهن وهوايتهن .. وكل ما يميز شخصيتها هو تفرغها للقراءة والدراسة .. إنها تصمم على أن تبقى وحدها مع كتاب على أن تذهب في زيارة .. أو تلبى دعوة إلى حفل .. كأنها تضع نفسها فوق المجتمع كله مع احساسها بأنها أرقى وأسمى من هذا المجتمع ..

وناهد الآن في الخامسة العشرين من عمرها . . ولم تتزوج . . وقد توفي أبوها وأمها وهي تقيم في بيت العائلة مع أختها الصغرى وزوجها وأولادها . . وتقيم معهم مستقلة بنفسها استقلالا كاملا . . ولا يحاول أحد أن يتدخل في حياتها ولا حتى مجرد الكلام في البحث عن زوج لها . . كأنها تعيش في بنسيون . . ولكنها تحب كل من يقيم في هذا البنسيون وكلهم يحبونها . . وقد رفضت أن تكون موظفة في الحكومة بعد تخرجها من الجامعة وعاشت تنتقل في مجالات كثيرة للعمل . . وتنتقل لا لأنها تواجه مشاكل في أي عمل ولكن لمجرد أنها تريد أن تجرب . . وكلما انتهت من تجربة انتقلت إلى تجربة أخرى . . إنها تهوى التجربة . . والتجارب هي أساس المعرفة أكثر . .

إلى أن كان يوم مرت خلاله ساعات فراغ كانت تقضيها في حجرتها بالبيت تقلب في محتويات دولابها . . ووقعت يدها على سوار عريض من الذهب المحلى بفصوص الماس والياقوت . . انه سوار كانت تملكه أمها ووقع في نصيبها من الأرض . . وأخذت قلبه أمام عينها وهي تتسائل عن مدى حاجتها إليه . . إنها لن تضعه في رسفها أبدا وتترزين به . . فهو كبير عريض لا تطلق أن تظهر به . . كأنه فضيحة أرستقراطية لامرأة تتباهى بثرائها . . أن كل ما تضعه في رسفها سوار ذهبي رفيع عادى تحتفظ به بحكم العادة منذ كانت صغيرة . . أو ربما لتحفظ بمظهر بسيط يثبت أنها أنثى . . ولكنها يجب أن تحتفظ بهذا السوار العريض الفائع اللون ولو في دولابها احتفاظا بذكري أمها . . ولكن . . لعل من الأجدي أن تحتفظ بذكري أمها فيما تمارسه وتعيش فيه فتبيع هذا السوار وتشتري بثمنه مجموعة من الكتب تذكرها صفحاتها بأمها . . أو تأخذ الثمن وتنفقه في رحلة تقوم بها إلى أمريكا . . إنها لم تدرس بعد المجتمع الأمريكى وسيكون لأمها فضل تمكينها من هذه الدراسة وتوفيرها لها . .

وحملت السوار في حقيبتها وذهبت إلى دكان عيد الله نور الدين الجواهرجى . . لقد سبق وذهبت إلى هذا الدكان أكثر من مرة مع

وحدث مثلا وهي في السابعة عشرة من عمرها أن قررت أن تقوم وحدها برحلة إلى إنجلترا وفرنسا . . وجن الأب . . كيف يترك ابنته الشابة تسافر إلى أوروبا وحدها . . ولكنها مصممة . . انها تريد أن ترى على الطبيعة ما قرأت في الكتب حتى تزداد علما . . ثم لماذا يخاف الآباء على بناتهم من السفر إلى الخارج وخدمهن ولا يخافون على الأولاد . . إن شخصية البنت لا تقل عن شخصية الولد لمجرد ان هذه بنت وهذا ولد . . ثم ان شخصية البنت لا تختلف لجرد الابتعاد عن أهلها في بلد غريب . . وإذا كانت هي معرضة للانحلال أو للخروج عن مبادئها وهي حرة في لندن أو في باريس . . فهي أيضا معرضة للانحلال وضياح المبادئ وهي في مصر بين أهلها . . بل وهي في داخل بيتها . . أي بيت العائلة . . واستطاعت ناهد باصرارها أن تسافر وحدها . . وعادت بعد شهرين دون أن تحمل أي هدية لأي فرد من أفراد العائلة . . إنها لم تسافر لتطوف بالديكاكين . . كانت متفرقة لمشاهدة ودراسة المجتمع الآخر . . وكل ما في دكاكين أوروبا تستطيع أن تجده في بعض دكاكين مصر . . وكان أكثر ما يحير العائلة في ناهد أنها لا تحس أبدا بحاجتها إلى رجل . . وكانت على صلة بكثير من الطلبة والأساتذة الذى تلتقى بهم في دراستها . . ولكن لم يعرف عنها أبدا ارتباطها بواحد منهم . . ولا بواحد من شبان المجتمع الذى يحيط بها . . ليس لها قصة حب . . ولا حتى مجرد قصة تبادل اعجاب . . حتى لو تناها رجل فهي لم تشم أبدا أي رجل . . حتى فكرة الزواج التى تصحب كل فتاة منذ تعي أنوثتها لم تطرأ أبدا على ذهن ناهد . . وتهرب منها في أي حديث حتى ولو كان حديثا ضاحكا . . إنها لا تريد الزواج ولن تتزوج . . لعلها فاقدة لانوثتها . . لا تستطيع أن تضع نفسها في صورة زوجة أو صورة أم . . حتى لمجرد اشباح طبيعتها كأنثى . . أو لعل غروها جعلها تعتبر نفسها في مستوى لا يمكن أن يشاركها فيه أي رجل . . ليس هناك رجل يمكن أن تكون له أو يمكن أن يكون لها . . وعجزت كل المحاولات عن اقناعها بالزواج . . حتى اضطرت العائلة أن تقبل زواج أختها الصغرى قبلها رغم التقاليد التى تفرض زواج الكبرى قبل الصغرى . .

- كيف حصلت عليه ؟

وقالت في دهشة لسؤاله وفي لهجة كأنها تتحداه :

- لقد ورثته عن المرحومة أمي .

وقال كأنه يتطوع لإنقاذها في رفق :

- لا بد أن المرحومة والدتك ورثته هي الأخرى عن أمها . . ان هذا السوار تحفة قديمة غالية . . وانصحك أن تحتفظي به . . ولا تبيعيه إلا مضطرة . . فثمن هذه التحف يرتفع من يوم إلى يوم . . كما يرتفع سعر الماس والذهب . . ان مجرد الاحتفاظ به يعطيك أكثر مما يعطيك البنك من أرباح لو وضعت فيه ثمنه . . أي ان الثمن الذي تبيعين به اليوم يمكن أن يرتفع إلى الضعف في العام القادم . .

وقالت في دهشة يشوبها الشك :

- غريبة . . لماذا لا تشتريه أنت اليوم وتحتفظ به حتى يرتفع ثمنه إلى الحد الذي يفريك ببيعه . .

وقال وفي عينيه نظرة حانية كأنه يشفق عليها :

- لأنني فهمت أنك زبونة قديمة لنا . . وصاحب المحل مسئول عن مصالح زبائنه لا على مجرد الكسب من ورائهم حتى يحتفظ بثقتهم . .

وقالت كأن دهشتها تدفعها إلى التحقيق معه :

- هل أنت أصبحت تعتبر من أصحاب المحل . .

وقال من خلال ابتسامته :

- تقريبا . .

والدتها . . انه جواهرجي العائلة . . وهناك . . التقت لأول مرة بشريف الهنداوى يستقبلها كأحد العاملين بالمكان . . انه شاب وسيم . . يحمل وجهه الأبيض من خلال عينيه الملونتين ملامح جادة محترمة تحيط بابتسامته ضيقة هادئة . . ولا تدري لماذا اطالت النظر إليه . . ربما لأنه يستطيع أن يفرض احترامه بمجرد وجوده . . وربما لأنه لم يهمل في استقبالها كعادة التجار في استقبال الزبائن . . ووجدت ابتسامته من ابتساماتها النادرة تتعلق بشفتيها وهي تقول :

- لقد ترددت كثيرا على الدكان ولم أرك من قبل . . هل جئت إليه حديثا . . وقال وقد اتسعت ابتسامته قليلا :

- منذ حوالى عام . . وأتمنى أن يستمر على مع عيد الله بك نور الدين طوال العمر . . وابتلعت ابتسامتها ولم تحاول أن تسأله أكثر كأنها تنهت إلى الاحتفاظ بشخصيتها الجادة . . وفتحت حقيبتها وأخرجت السوار العريض وناولته له قائلة :

- كم يساوي هذا السوار . . أريد أن أبعيه . .

والتقط منها السوار وأخذ يقلبه بأصابعه . . ثم وضع نظارة صغيرة كأنها ميكروسكوب على إحدى عينيه وأخذ ييطلق في كل نص من الفصوص الماسية المعلقة بالسوار ثم رفع الميكروسكوب وفرد السوار أمامه في حرص شديد كأنه يخاف على شيء عزيز وقال لها :

- هل أنت في حاجة إلى بيعه . .

وقالت وقد عادت ابتسامتها إلى شفتيها :

- انى لست في حاجة ماسة إلى ثمنه . . ولكنى لست في حاجة إليه . .

وقال في لهجته الجادة المهذبة :

وأدارت عينها عنه حتى لا تبدو كأنها تعلقت بوسامته وقالت كأنها
تهرب من سؤاله عن شخصه :

- إنى لا أقهم حتى الآن نصيحتك لى بأن احتفظ بهذا السوار
ولا أبيعته حتى لو كنت أبيعك لك . .
وقال فى هدوء الاستاذ :

- ان رأس المال السائب يحتاج إلى المعاملات المستمرة . . أى إلى
توالى البيع والشراء . . فالرجل الذى يملك مزرعة دواجن محتاج إلى أن
يبيع انتاجه قبل أن يموت الدجاج . . ولكن رأس المال العينى لا يقترض
التعامل به ولكنه يعتمد على دراسات تحيط بكل صفقة وتحدد قيمتها . .
كان يتجمع رأس المال فى كمية من السبائك الذهبية . . أو من الجواهر . .
أو أن يكون مجمدا فى قطعة أرض . . لذلك فصاحب رأس المال يعتمد على
دراسة السوق قبل أن يقرر بيع رأسماله أو الاحتفاظ به . . وقد وصل
اصحاب الملايين العرب إلى شراء أراض قاحلة فى جزر بعيدة جرداء تقع فى
المحيط الأطلنطى أو المحيط الهادى . . ودافع الشراء هو ادخار رأس المال
وهم واثقون بأن هذه الجزر ستعمر مع الوقت وتزدحم بالسكان ويرتفع ثمن
الأرض فيها إلى عشرات أضعاف الثمن الذى اشتراه بها أى كأنه يدخر
رأسماله فى بنك خاص ترتفع أرباحه عن أى بنك من البنوك المعروفة . .

وكانت تستمع إليه بطبيعتها الدراسية التى تدفعها إلى هواية جمع
المعلومات . . وقامت من المقعد الذى كانت تجلس عليه قائلة :

- إنى مازلت فى حاجة إلى المزيد من الشرح حتى اقتنع . . وسأمر
عليك يوما آخر . . وهمت أن تنصرف وهو يعد إليها يده بالسوار قائلا :

لا تنسى السوار . .

وترددت لحظة ثم قالت :

- احتفظ به لديك إلى أن أستقر على مصيره . . أما أن أصمم على
بيعه أو تكون أنت قد غيرت رأيك وقررت شراؤه . .

وقال كأنه يتعلق بها :

- انتظرى لأكتب لك ايصالا . .

وقالت بسرعة وهى تبتعد :

- سأمر عليك . .

وقد نشأت على الثقة فى التعامل مع عبد الله نور الدين الجواهري
صاحب المحل من طول المدة التى جمعت عائلتها به . . ولكن . . لعلها
اكتسبت مزيدا من هذه الثقة بعد أن التقت بشريف الهنداوى الذى أصبح
يعمل معه ولذلك تركت له السوار دون أن تنتظر أن يكتب لها ايصالا . . ولم
تسال نفسها من أين اكتسبت ثقتها بشريف . . انه مجرد احساس . .

وقد قضت يومها وهى تراجع دراستها عن التصرف برأس المال . .
وتبحث عن كتب لم تقرأها من قبل . . انها تحس بأنها تدخل فى عالم
جديد . . ولاتفسر هذا الاحساس بأكثر من هوايتها للدراسات . . لم تحس
بأنها تقدم على تجربة جديدة أوحث لها بها مجرد رؤية شريف . .

وفى اليوم التالى اتصلت به بالتليفون وقالت له إنها فى حاجة إلى حديث
طويل لتستكمل اقتناعها الذى يخص التصرف فى السوار . . وهى لا ترى
أن لقاءها به فى الدكان يكفى لتبادل هذا الحديث لذلك فهى تدعوه لتناول
الشاي معها فى بيتها . .

وهى قد تعودت أن تدعو بعض الأساتذة والزملاء الذين يعملون معها
إلى البيت . . لم تكن الدعوة شيئا جديدا عليها أو على أختها التى تعيش
معهما . . وان كان معظم الذين سبق أن دعتهم قد أوقفت دعوتهم وأبتعدت

عنهم . . لأنهم بدأوا يستغلون هذه الدعوة للتعامل معها كأنثى . .
ويحاولون الوصول معها إلى ما يريده الرجل من الانثى . .

وقد جاء إليها شريف وجلس معها هادئاً مهذباً من خلال وسامته . .
كانه يعتبرها دعوة عادية يوجهها الزبون إلى التاجر الذي يتعامل معه . .
وقد بدأ بأن قدم لها ايضاً يضم وصفاً لكل تفاصيل السوار الذي تركته
له . . وهو يقول :

- من الأفضل أن تحتفظي بالسوار . . رغم اعتزالي بثقتك في
عبد الله بك وثق . .

واستمر الحديث بينهما طويلاً حول أسرار سوق المجوهرات وسوق
التعامل برؤوس الأموال . . ولكنه لم يعد حديثاً بين تاجر وزبونة . . ولكنه
أصبح أقرب إلى حديث بين صديقين لا يحمل أى كلمة تخرج بهما عن
مجرد بداية صداقة . . ولكنها قالت له وهي تودعه :

- سأراك مرة ثانية حتى نستكمل الحديث . .

وقال مع ابتسامته الهادئة ودون أن تبرق عيناه بأى أمل يتعدى
الصداقة :

- أرجو أن تسمعى لى فى المرة التالية بأن أكون أنا صاحب الدعوة . .

وقالت فى بساطة دون أن تحس بأنها تعرضت للتجربى عليها :

- أين

قال فى بساطة :

- أما فى بيتنا لتلتقى بأبى العجوز وبأختى الكبرى وأولادها الذين
يزحمون البيت . . وأما فى أى مكان تختارينه . .

وقالت فى بساطة دون أن تحس بجراتها :

- لنؤجل زيارة البيت وتلتقى فى أى مكان لتناول الشاي . .

والشئ الذى يعتبر جديداً عليها أنها بعد أن خرج شريف اندفعت إلى
أختها وأخذت تحدثها عنه وتروى لها عما كان بينهما من مناقشات . . لم
يكن يهمها أن تشرك أختها فى أى تصرف خاص بها . . وبعد أن لبت دعوة
شريف لتناول الشاي فى محل عام . . عادت تروى لأختها أيضاً تفاصيل
مآدار بينهما من حديث . . رغم أنه لم يكن فى حديثهما شئ أكثر من تبادل
المعلومات الدراسية عن كثير مما فى الحياة . .

وبعد ما بأيام كانت أختها مع زوجها مدعوين إلى سهرة فى الخارج . .
وعادت فى ساعة متأخرة من الليل وفتحت الباب ودخلت وهى تصيح بأعلى
صوتها منادية . . ناهد . . ناهد . .

وكانت ناهد نائمة فاقتحمت أختها غرفتها وأخذت تهزها فى عنف حتى
فتحت عينيهما وقبل أن تعتدل جالسة صاحت فيها أختها :

- ماذا تعرفين عن شريف الذى تدعينه ولا تكفين عن الحديث
عنه . .

وقالت ناهد وهى تتثائب :

- ماذا تريدان أن أعرف عنه . .

وصاحت أختها :

- هل تعرفين أنه يهودى . . من أب يهودى وأم يهودية . . ومن عائلة
يهودية معروفة . .

وابتلعت ناهد تثائبها وقالت فى صوت حشرجه الصدمة :

- من أين جئت بهذا الكلام ؟

وعادت الأخت تصيح في ثورة قرف :

- سمعت . . وعرفت . . وتأكدت . . وقضينا طول السهرة ونحن نتحدث عنه . . وطبعاً لم أقل أنها مصيبة وقعت على رأسك . .

وقالت وهي تقبض على أصابعها التي ترتعش :

- ولماذا تعتبرينها مصيبة . .

وقالت الأخت وهو تلوى شفتيها :

- لأنه أول رجل في حياتك أحس كأنك تريدينه لك . . وسأتركك تبحثين عن الحل . .

وابتعدت الأخت خارجة من الحجرة . . وناهد جالسة مبخلقة العينين في الفضاء . . أنه يهودى . . لقد كانت قد نسيت أن في مصر أو أنه كان فيها يهود . . أين هم يهود مصر . . ولكنها يجب أن تعرف الآن أن في مصر يهوداً . . وهم يهود مصريون . . وظلت طوال الليل جالسة مبخلقة العينين وهي تستعرض كل لقاء كان بينهما . . وكل كلمة تبادلها . . لماذا لم يقل لها أنه يهودى . . ولعل هذا الترفع والسمو في التعبير عن العلاقة التي جمعتهم ليس من طبيعة شخصيته ولكن لمجرد أنه يهودى ومتأكد أنها يمكن أن ترفضه . . أن اليهودى ثعلب شاطر دحلاب يتسلل داخل فريسته حتى يستولى عليها ويأكلها . .

وما كاد الصباح بهم على الدنيا حتى اتصلت به في التليفون وقالت له فوراً :

- أريد أن أراك . .

قال في هدوء وكأنه لم يفاجأ :

- متى ؟

قالت في حدة :

- الآن . .

قال كأنها ترى ابتسامته تتسع في سماعة التليفون :

- لتبادل أجمل صباح الخير . . أين . . هل أمر عليك الآن . .

قالت في عنف :

- لا . . في نفس المكان الذى سبق أن التقينا فيه . .

والفت سماعة التليفون وهو يقول حاضر . . دون أن تزوده بكلمة حلوة . .

وأحست بمجرد أن التقيا كأنها تهم بالابتسام تحية لوسامته . . وقالت فوراً قبل أن تستريح في جلستها :

- هل أنت يهودى ؟

واتسعت ابتسامته الهادئة كأنه كان في انتظار هذا السؤال وقال في صوت ثابت .

- فعلاً . . أنا يهودى . .

وقالت كأنها تهم أن تصرخ في وجهه :

- ولماذا لم تقل لي . .

وقال دون أن تهتز نيراته :

- لم تمر بأحاديثنا مناسبة تدفعنى لأن أقول لك أنى يهودى . . أو
تقول لى أنك مسلمة . .

وقالت فى حدة :

- لم يكن فيك ما يدفعنى إلى هذا التساؤل . . حتى اسمك شريف
الهنداوى . . اسم عام لا يدقغ إلى الشك . .

وضحك رغم أنه ليس من عادته الضحك بصوت عال وقال :

- اننا نتشبه بنجوم السينما الذين يختار كل منهم لنفسه اسما يجذب
الجمهور . . وأبى أسمانى باسم شريف لأنه اسم فى صالح العمل . .
مادما نعمل فى مصر . . وأسمى الكامل المكتوب فى شهادة ميلادى لا يعرفه
أحد . . هو . . شريف كوهين النداوى . . أى انى لم أخف إلا فقرة
واحدة من اسمى . .

قالت وكأنها تراجع نفسها :

- كان يجب أن أتساءل عن الأسباب التى دفعتك إلى الاشتغال بتجارة
الذهب والمجوهرات . . وربما كنت عرفت من خلال هذا التساؤل بأنك
يهودى . . فهى المهنة التى تجمع اليهود . .

وقال فى جدية كأنه يلومها :

- ليس كل الجواهرجية والمشتغلين بتجارة الذهب يهودا . . وليس كل
اليهود يعملون بهذه التجارة . . وليست هناك مهنة مقصورة عليهم . . إنهم
يعملون فى كل المهن كباقي أفراد الشعب . . وبينهم الفنى جدا والفقير
جدا . . وبينهم المتعلم جدا والجاهل جدا . . ان اليهود هم مجموعة تمثل
كيانا فى أى شعب . . ويجمعهم كلهم أنهم مواطنون . . فاليهودى فى فرنسا
فرنسى . . وفى انجلترا انجليزى . . وفى الهند هندى . . وفى مصر
مصرى . .

وقاطعته قائلة فى سخرية :

- وفى اسرائيل مجرد اسرائيليين . .

وقال مستطردا كأنه لم يفاجأ بهذه القاطعة :

- فعلا . . كآى طائفة يغلبها التطرف للاستقلال بنفسها واقامة دولة
خاصة بها . . كما يحاول شعب شمال ايرلندا الاستقلال عن ايرلندا
الجنوبية وعن بريطانيا . . وكما تحاول طائفة السيخ اقامة دولة مستقلة عن
الهند . . و . . و . . عشرات من الطوائف تحاول أن تقوم كدولة . . ورغم
أن التطرف اليهودى حقق اقامة دولة اسرائيل إلا أنه لا يزال بين اليهود من
يرفض هذا التطرف . . ويغلبهم انتماءهم للوطن الذى يعيشون فيه . . وقد
كان أبى كوهين النداوى يهوديا جدا . . ولكنه رفض أن يترك مصر . . أو
يهاجر إلى اسرائيل مع المهاجرين . . أنه لا ينتمى إلا إلى محل الجواهرجى
الذى يمتلكه . . وهو يملكه فى مصر وهو مصرى . . يهودى جدا ومصرى
جدا . . حتى بعد أن أدت السياسة إلى فرض الحصار على كل نشاط يهودى
فى مصر . . جمع أبى كل ما يملك من سبائك الذهب والمجوهرات واحتفظ بها
فى البيت وأغلق الدكان الذى يبيع فيه . . ولم يهاجر مع اليهود
المهاجرين . . بقى فى مصر . . وقد تعذب طويلا وهو قابع فى البيت كأنه فقد
الحياة . . وأن كان قد ضمن ما يكفل حياته وحياة العائلة بفضل ما أدره
ومن خلال اتصالات متباعدة خفية يبيع فيها بعض ما يملكه . . إلى أن تطور
الوضع والجو السياسى فى مصر . . وظهر ما سعى بالانفتاح . . وكان أبى
يريد أن يعيد فتح دكان الجواهرجى . . ولكنى عارضته . . يجب أن يختار
طريقا أمنا فى انتظار مزيد من التطور . . واستطعت أن اتصل بعبد الله بك
نور الدين . . إنه جواهرجى مسلم على اتصال قوى بكل رجال الدولة . .
واستطعت أن أقنعه بأن أعرض فى دكانه السبائك والمجوهرات التى يملكها
أبى مع اقتسام الأرباح . . ووافق . . أنها صفقة مربحة بالنسبة له . .
وهكذا أصبحت من رجال تجارة الذهب والمجوهرات . . لا لأنى يهودى . .
بل لأنى نشأت فى هذه المهنة وتلقيت أسرارها من أبى . .

وكانت تستمع إليه كأنها تناقش كل كلمة بينها وبين نفسها .
وأحيانا تكاد تقتنع وأحيانا ترفض الاقتناع إلى أن قالت له :

- على كل حال فقد كنت أحس دائما بأن هناك ما يبعد بيننا رغم
الصداقة الكاملة التي جمعتنا . . . وكنت اعتقد أن السبب هو حرص كل منا
على مراعاة الآخر ولا يريد أن يبدأ قبل أن يبدأ الآخر بما يطور هذه
الصداقة . . . وكنت أنسب لك أنك رجل محافظ تريد أن تؤكد ألا مطمع لك في
أي فتاة تقبل صداقتك . . . وكنت أتهم نفسي بأنني لا أعرف ما أريد . . . ولم
أعود أن أنقاد لنفسي كأنثى . . . وهو ما كان يدفعني دائما إلى التساؤل عن
مصير صداقتنا . . . ولكني أعرف الآن أن ليس لها أي مصير بعد أن عرفت
أنك يهودى . . . فأنا مسلمة . . .

وقال وعيناه تنطقان لأول مرة بالحب ويمد يده يحاول أن يمسك
بيدها :

- لا شيء يمكن أن يقضى على صداقتنا . . . أو يحرمانا أن نتطور بها
أكثر . . . لا شيء يمكن أن يبعد أحدهما عن الآخر . . .

وقالت في يأس وهي تبعد يدها عن يده . . .

- ماذا تريد حتى تبقى معا . . .

قال وهو يلفها بعينه . . .

- المهم هو ما تريدنيه أنت . . .

وقالت متنهدة بياسها :

- ماذا يمكن أن أريد . . .

قال وهو يبعد رأسه ويدير عنها عينيه . . .

- تريدني أن نتزوج . . .

وقالت بسرعة وكأنها تشهق :
- أنك يهودى . . .

وقال في هدوء :

- انى أعلم انى يجب أن أعلن إسلامى لأتزوجك . . . وأعلم أنك
لا يمكن أن تقبلى أن تتزوج زوجا مدنيا بعيدا عن الشرع . . . والإسلام
يحبى الرجل المسلم أكثر من المرأة المسلمة . . . فيمنحه حق الزواج من امرأة
تنتمى لأى دين . . . ولكنه يقرض على المرأة ألا تتزوج إلا مسلما . . . أن
أختى الصغرى تزوجت من عربى مسلم دون أن تضطر أن تخرج عن دينها
وتتزوج أنها يهودية . . . أما أنا فلا أستطيع أن أتزوجك إلا إذا أعلنت
إسلامى . . . وأنا مستعد . . .

وانطلقت كأنها تدافع عن إيمانها بما اكتسبته من دراساتها :

- الإسلام لا يحبى ولكنه ينظم . . . وقد فرض على المسلمة أن تتزوج
من مسلم حتى يضمن أن يكون أبناؤها من المسلمين . . . فالأبناء ينسبون
للأب . . . ولا يريد لهم الله أن يكونوا ضحية اختيار الأم لأب غير مسلم لم
يشاركوا معها في اختياره . . . ولذلك قرر الله أن يحمى للأبناء إسلامهم . . .

وقال في هدوء جاد كأنه يبادلها المناقشات الدراسية كما تعودا :

- أن التنظيم اليهودى لا ينسب الأبناء للأب ولكنه ينسبهم للأم . . .
أو أن أبناء أختى الصغرى يمكن أن يعتبروا أنفسهم يهودا رغم أنهم من
أب مسلم ومهما اختلفت الأديان في تنظيم الحياة فأنا نفسى أقبل أن يكون
أولادنا من المسلمين لأنى أنا نفسى سأكون مسلما . . . فهل توافقين على أن
ألتزوج . . .

وتنهدت تنهيدة من أعماقها وهامت نظرات عينها في الفضاء كأنها
أختار مصيرها ثم قالت وهي تنتفض قائمة من مقعدها :

- لا أدري . . . دعني أفكر إلى أن أختار . . . وتركته مبتعدة دون أن تعد يدها لتصافحة ودون أن تنطق بكلمة وداع . . .

وهو يتبعها بعينين جامدتين ووجه مكفهر . . . كأنه تاجر يودع زبونا دون أن يتفق معه على اتمام الصفقة . . . ولكن يخالجه أمل بعيد في أن يعود الزبون إليه . . .

وانعزلت ناهذا داخل غرفتها في البيت أياما تفكر وتحاسب نفسها وتحس كأنها تختار مستقبلها ومصيرها . . . انها مفاجأة أقرب إلى الصدمة القاتلة . . . لم يخطر على بالها أبدا منذ التقت بشريف أنه يمكن أن يكون يهوديا . . . بل انها عاشت دون أن يطرأ على تفكيرها واحساسها بأن في مصر مواطنين من اليهود . . . ربما لأن كل جيلها بدأ وعيه وهو يعتبر أن اليهود هم اسرائيل . . . ونحن في حرب مع اسرائيل . . . أى في حرب مع اليهود . . . وتعمدت السلطات المصرية أن تدفعهم إلى الفرار . . . ورغم ذلك بقى منهم أفراد يقيمون في مصر كمواطنين . . . آلاف أو على الأقل مئات . . . رغم أننا في حرب مع اسرائيل . . . أى مع اليهود . . . وكل الدول العربية التي تحارب لا يزال يقيم فيها مواطنون من اليهود . . . ولكن . . . هل المواطنون اليهود يشتركون مع بقية أفراد الشعب في محاربة اسرائيل . . . ان بين أفراد عائلتها أربعة من أبناء عمومته قاتلوا في الحرب واستشهد منهم اثنان . . . فهل جند شريف أيضا في الجيش المصري لمحاربة اسرائيل باعتباره مواطنا مصريا رغم أنه يهودى . . . ربما لم يلحقه قانون التجنيد لأنه وحيد أبويه من الذكور . . . أو لعل الادارة العسكرية تراعى عدم تجنيد اليهود لعدم ثقتهم في دوافعهم لمحاربة اسرائيل . . . المهم . . . كيف تكون عائلتها في حرب بينما زوجها - لو تزوجت شريف - لا يقبل أن يحارب معها وغاية ما يستطيعه مهما اشتدت دوافعه الوطنية هو أن يقف على الحياد بين بنى وطنه وبنى دينه . . . أى بين مصر واسرائيل . . . رغم أن المسلمين والمسيحيين يحاربون بعضهم بعضا باختلاف أوطانهم . . . كل وطن يحارب الآخر مهما تعددت أديان المواطنين . . .

وكانت تخطر على فكرها تساؤلات لا تستطيع أن تجيب عليها . . . فلجئى خارجة إلى المكتبات تبحث عن كتب أو تراجم الصحف القديمة . . . ألها تعيش في معركة بين مؤثرات عواطفها الخاصة وبين مؤثرات عواطفها الوطنية . . . فهي تحس كأن شريف يشد عواطفها ولكنها تحس أن وطنيتها لئدها أكثر . . . إنها لا تستطيع أن تختار بين شريف ومصر . . . ولكنها اكتشفت من خلال دراستها الشاملة المستفيضة أن كل الدول العربية عدلت عن طرد مواطنيها اليهود والتخلص منهم . . . ونشرت بيانات صريحة تطالب فيها مواطنيها اليهود الذين فروا منها أن يعودوا إليها . . . وان كان لم يعد منهم إلى أوطانهم إلا يهود المغرب . . . عاد منهم الآلاف . . . بينما لم يعد إلى مصر والسودان وبقية الدول العربية سوى مجموعات من الأفراد لا يتعدى عددهم مجموعة أصابع اليد . . . لا أدري لماذا . . . ربما لأن حكومة المغرب شجع لمواطنيها اليهود الذين عادوا إليها حق الاتصال بإسرائيل للامتنان على أقاربهم الذين تركوهم هناك أو للاستمرار في مزاولة أعمالهم التي تتركز هناك . . . وهو مالم توفره لهم باقى الدول العربية . . . وسوريا . . . وهى من أمته الدول العربية تطرقا . . . لم يعد إليها أحد من اليهود الذين كانوا قد فروا منها ولكن لا يزال يعيش فيها أكثر من سبعة آلاف مواطن يهودى لوغض أن تترك أيا منهم يهاجر أو يفر إلى اسرائيل . . . حتى أن اسرائيل أصبحت تطالب سوريا بما تطالب به الاتحاد السوفيتى وهو اطلاق حرية الهجرة لليهود . . . وقد تكون دوافع الدول العربية لدعوة مواطنيها اليهود إلى العودة إليها هو اكتشافها أنها كانت قد وصلت إلى منتهى الغياء بدفع هؤلاء المواطنين إلى الهجرة . . . لأنها بذلك وفرت لا اسرائيل مزيدا من القوة برفع تعداد قواتها العسكرية التي تحارب بها . . . فإذا سمحت لهم بالعودة فكانها تسحبهم من قوات اسرائيل لأضعافها . . . أى أن الدافع العربى كان دافعا سياسيا عسكريا ولكنه يشمل أيضا التجرد من التفرقة الدينية واحترام اليهود كاحترام النصارى واحترام المسلمين كمواطنين . . . أى أن صديقتها شريف اليهودى يعتبر شخصية مصرية كاملة . . . لاتلام على صداقتها له كصداقتها لأى شخصية من أى دين . . . علاوة على أن مصر خطت خطوة أبعد . . . وأصبحت لا تقصر اعترافها على اليهود فحسب كمواطنين أو

كأفراد بل أصبحت تعترف أيضا بإسرائيل . . ولم تعد هناك حرب بين مصر ودولة اليهود .

ثم أن شريف قرر أن يعلن إسلامه لو قبلت أن تتزوجه . . ربما لو تزوجته لرضى الله وأفاض عليها من بركاته لأنها ضمت إلى الإسلام مؤمنا جديدا . . وكما يرضى الله عن الأمهات لأنهن يلدن مسلمين . . فقد قدمت إلى الله مسلما لم تلده ولكنها تزوجته .

ولكن هل يعلن شريف إسلامه إيمانا بالاسلام أم كمجرد تحايل لاتخاذ الاجراءات التي يفرضها زواجه بها ؟ . إنها لا تستطيع أن تتدخل في أعماقه لتكتشف مدى إيمانه أو تضطره لأن يتخذ مظاهر إسلامية وهو كاذب فيها يكفى إعلانه بأنه مسلم والمسلمون بينهم من لا يراعى فروض إيمانه بالاسلام ويتحدون ما فرضه الله عليهم ورغم ذلك فهم مسلمون لهم شخصياتهم كمسلمين .

ومرت عشرة أيام وناهد ضائعة باستفراقها في أفكارها وتساؤلاتها . ثم قفزت فجأة وأمسكت بسماعة التليفون والتقطت شريف وقالت له فورا

- هل لا تزال عند رأيك . .

وقال في هدوء

- انى عند رأىي . .

وأطلقت كلمات عنيفة كأنها تنطلق من بركان ثائر في صدرها :

- لقد فكرت . . ووافقت . . ثعال لأراك هنا في البيت

والتفت سماعة التليفون قبل أن تسمع رده . . وألقت نفسها على المقعد منهكة . يغلبيها الاحساس بأنها مقبلة على مغامرة خطيرة . على تجربة جديدة . . وقد كانت حياتها كلها سلسلة من التجارب

ويعد أن هدأت قليلا . . نادت أختها عليها وأبلغتها أن شريف سيعلم إسلامه وأنها ستتزوجها . وصرخت الأخت كأنها فوجئت بأنها ماتت . . أن شريف لن يكون أبدا مسلما . . ولن يعتبره أحد مسلما . . انه يهودى . . وستتزوجين يهوديا . . وسيعتبرك الناس ككافرة أو مجنونة ويوجهون إليك آلاف التهم ويضيع احترام العائلة كلها . .

وكان زوج أختها أعنف من زوجته في اعتراضه ورفضه . . وكلاهما رفض رؤية شريف عندما جاء يومها للقاء ناهد . . رغم أن المفروض أنه جاء لاعلان الخطوبة وعندما وصل الخبر إلى بقية أفراد العائلة ثاروا جميعا رافضين . ولكن ناهد كانت قد عودتهم أن تستقل بنفسها عنهم ولا تسمح لأحد منهم بالتدخل في شئونها الخاصة . انها هي التي تتزوج فمالهم ومالها .

ومرت الايام بسرعة . . وقد لاقى شريف بعض المتاعب في إعلان إسلامه . . ربما لأن كل من كان يقابلهم من المسؤولين عن اتخاذ الاجراءات كانوا يواجهونه بالشك في نياته . . لماذا يريد يهودى أن يعلن إسلامه . . وكان دائما لمقا في كسب ثقتهم . . كان يقول انه مصرى . . ولد في مصر وعاش في مصر ولم تظهر عائلته من أيام جده وجد جده إلا في مصر . وبصر هي التي تدبعه إلى الاسلام . . وقد وجد نفسه يحفظ تلاوة الفاتحة وكثيرا من آيات القرآن قبل أن يقرر إعلان إسلامه . . ويتردد على زيارة حى الحسين لا مجرد تناول طعام الكباب في مطعم الدهان بل ليكون قريبا من مسعد الحسين . فهو يحس به كأنه شعار من شعارات وطنية . . وكان في بعض اللقاءات يزيد المصارحة بأنه سيتزوج مصوية مسلمة . . كأنه لا يريد أن يضبط وهو يستغل إسلامه في عمل خفى . . وفي النهاية . . ماذا سمير الإسلام بانضمام أى فرد تحت لوائه . . والنيات في علم الله . . ولذلك تم إعلان إسلام شريف الهنداوى . .

وقد كان شريف خلال تلك الايام قد زار حلخام اليهود . . وأبلغه انه ضرر ان يعلن إسلامه . . لا لأن إجراءات الانتقال من دين إلى دين تفرض

ابلاغ وعلم قيادة الدين الآخر . ولكن لأن شريف لا يريد أن يبدو كأنه يهرب من دينه الذي يجمع كل أهله . . ولكن كل شيء يمكن أن يتم بالمصارحة والاتفاق . والخاصام يقدر أن الدنيا مصالح . وقد تكون مصلحة اليهودى أن يدعى الاسلام . . أو من مصلحة مسلم أن يدعى المسيح او اليهودية . . ومهما اشتدت المصالح فهي لا تؤثر في الدين الذي يؤمن به الفرد . مادام الايمان ليس هو الدافع إلى تغيير دين . . بدین . . لذلك فقد استمع الحاحام إلى شريف في هدوء . ولم يجادلوه أو ينصروه إلا في حدود ما يفرضه عليه مركزه من رسميات . وقام يودعه بنفس الداراة التي كان يودعه بها دائما كلما زاره . . كأنه مطمئن إلى أنه سيبقى يهودي

ومرت الايام بسرعة وتحدد يوم عقد القران .

وكانت ناهد مستعدة أن تترك بيتها وتعتقد قرانها بشريف في أى مكان . . ولكن كان يغلبها تفضيلها أن يعقد القران في بيتها . . بيت العروس . . حتى لا تفقد شيئا من تقاليد العائلات . وحتى يكون زوجها صريحا كاملا . وأختها بدأت تستسلم لأرادتها . وقبلت هي وزوجها أن يعقد القران في البيت . ولكنهما اشترطا ألا يوجها الدعوة إلى غريب حتى من أبناء العمومة وأبناء الخيلان . كأنهما يريدان أن يخفيا قضية تمس العائلة كلها . ولذلك لم يجلس حولها مع زوجها شريف إلا المادون وأختها وزوجها وأولادهما . . وأفراد عائلة شريف . فقد صمم على أن يدعو عائلته . أمه وأبوه وأخته الكبرى وزوجها . أنهم موافقون على هذا الزواج فلماذا لا ندعوهم . ولكنه لم يدع أخته الصغرى المتزوجة من مسلم . لأنها تعيش خارج مصر وليس هناك حفل عام كبير يفرض دعوتها وتكليفها بمتاعب السفر ونفقاته . أن اليهود يقدرون دائما حساب النفقات في كل مناسبة .

ولم تكن ناهد قد التقت بعائلة شريف أو عرفت أحدا منهم حتى بعد أن أعلنت خطوبتها إلى ابنهم شريف . وكانت تعترض أن العائلة كلها قد ثارت على الابن الذي خرج عن ديانتهم وأعلن إسلامه وقاطعته وطردته من

بيتها . . ولعل العائلة ثارت عليه أياما ثم عادت واستسلمت له مقدره دوافعه . . وهذا يحدث دائما . . إنها تعرف كثيرا من المسيحيين أعلنوا إسلامهم للتزوج من المسلمات . . وكانت العائلات تتورث تعود وتضم ابنتها إلى حياتها رغم أنه خرج عن دينها . . بل تعرف مسيحيات تزوجن من مسلمين وهن محتفظات بديانتهم دون أن يصطرون إلى اعتناق الإسلام ورغم ذلك تتور العائلة وتحاول وقف هذا الزواج . . إلى أن ينتصر الحب الذي جمع بين الابنة والرجل الذي اختارته فستسلم العائلة . . تستسلم للحب حتى تظل محتفظة بابنتها . وقد كانت تعتقد أن اليهود يعتبرون أكثر تطرفا في التمسك بديانتهم والتحزب لها . ولكنها تعرف أن كثيرا من اليهوديات قد تزوجن من مسلمين حتى في مصر . بل أنها قرأت عن انتشار حالة زواج بنات اسرائيل من عرب فلسطين حتى أن الحكومة الاسرائيلية قامت بحملة ضخمة لوقف هذه الزيجات . حتى تطمن إلى أن أولاد بنات اسرائيل سينشأون يهودا . . لا مسلمين ولا مسيحيين كابائهم . . ولعل هذا كان الدافع لخاصام اسرائيل لاصدار قراره بأن تنسب ديانة الابن لأمه لا لأبيه . هذا بعكس البنات العرب في فلسطين . فهن يرفضن الزواج بأى اسرائيلى يهودى مهما أحاط بهذا الزواج من دوافع . ربما لأن المسلمات أكثر تمسكا وأشد ارتباطا بدينهن من اليهوديات . . ودين المسلمات يحرم عليهن الزواج بغير مسلم . . ولأن الاسلام في فلسطين لم يعد محصورا في الايمان بالله بل أصبح يشمل الارتباط بالوطن . . وربما أيضا لأن الرجل في اسرائيل لم يعد يستطيع أن يقدم على إعلان إسلامه . لأن خروجه عن دينه أصبح يعنى خروجه عن وطنه . . وايضا لم ينتشر الزواج المدني الذي لا يحسب حساب الأديان في فلسطين كما انتشر في لبنان مثلا بين المسلمين والمسيحيين . لأن الإسلام والمسيحية يمكن أن يتعايشا في لبنان ولكن الإسلام واليهودية لا يمكن أن يتعايشا في فلسطين أى في اسرائيل .

ولهذا كله . . ولكثرة ما قرأت ناهد عن حالة اليهود في العالم كله منذ عرفت شريف . . لم تطلب منه أن يقدمها إلى عائلته أو يقدم عائلته إليها

إلى أن كان يوم عقد القران . والتقت ناهد بهم والتقوا بها وكل منهم ينظر إلى الآخر مجلقا كأنه يخلق في مخلوق عريب يحاول أن يكتشف سره وناهد تحكم عليهم . . انها عائلة محترمة . تبدو كأنها لا ينقصها شيء رغم سنوات العزلة التي يعيشها اليهود في مصر . وشخصياتهم وأحاديثهم وحتى اختيار النساء لثيابهن التي يبدو بها كلها منطلقة من صميم الشخصية المصرية والواقع المصري والذوق المصري . وتجمع بين الثقافة وترق بالذكاء كل ما في مصر . حتى أنك لا تستطيع أن تعرف أنهم يهود إلا إذا سألتهم أو تقصيت عنهم . .

ولكن ناهد تحس وهي بينهم انها غريبة عنهم . . لا تستطيع أن تحس بأي احساس يجذبها اليهم . أو يدمحها فيهم بعد أن أصبحت زوجة لابنهم شريف . . والأحاديث كلمات مقطوعة وسريعة كمحرد اضطرار كل منهم إلى إطلاق صوته . . ولعلها أحست باقترب إلى أم شريف . انها أكثر طبيعية وأكثر صدقا في تعبيرها عن حنانها لناهد . . ربما لأنها عجوز . . وقد قالت لها وهي بجانها . .

- لقد أحبتك قبل أن أراك لأنى أحسست بمدى حب ابنى لك . .

انها صريحة . . تحبها لأن ابها يحبها لالذاتها . .

وقد انتهى الحفل سريعا مع انتهاء المأذون من كتابة العقد . . وقد وقع زوج احتها على العقد كشاهد دون أن يتسم وكأنه يصدق امضاءه وهم في حاجة إلى توقيع شاهد آخر . . وليس بينهم من الرجال سوى والد شريف وزوج اخته . وكلاهما لا يجد الجراة ليعرض امضاءه على عقد زواج إسلامي وكل منهما يهودي . إلى أن شد شريف ورقة الزواج من امام المأذون ووضعها امام زوج اخته وهو يقول له مبتسما :

- شرفنا بامصانك يانا حوم

انه يعلم أن ليس في الشرع ما يشترط أن يكون شاهدا الزواج من المسلمين . وهو يعتمد أن يحقق التوازن بين المسلمين واليهود في الشهادة على عقد زواجه . لقد وقع زوج اخت ناهد وزوج اخته .

وانفص الحفل . . لقد كان حفلا قصيرا باردا . . ولم تحاول ناهد حتى أن تهتم بما تقدمه لمدعوها . . محرد اكواب عادية من المرطبات العادية وصينية تجمع قطع من الحلوى والشيكولاتة والحاتوه . كأنها تشترك مع زوجها في تعود عدم الانعاق على المظاهر إلا في حدود الحاجة إليها . . وما قدمته كان يكفي . انه حفل كأنه اجتماع لكتابة عقد شركة بجمع بين بلدين مختلفين .

وبعد انصراف المدعوين . . أخذ شريف زوجته وانصرف بها . . ولم تكن هناك أى مشكلة تواجههما . . فقد كان يعيش في شقة يفرد بها عن امراد عائلته . ولم تطلب ناهد تغيير أى شيء من أثاث هذه الشقة الا هجرة النوم . إنها تريد أن تنام مع زوجها على فراش لم يطأه جسد امرأة أخرى قبلها . حتى لو كان ما تصوره عن أيامه السابقة مجرد أوهاام . . وقد اختارت قطع أثاث الحجرة في منتهى البساطة . لم تعتمد اختيار القطع العضة رغم أن زوجها يستطيع أن يدفع ثمن كل ما هو فخم . انها بطبيعتها تحب البساطة

ولكنهما مع الأيام بدأ يعانيان وضعهما في المجتمع الذي يحيط بهما . . أن عائلتها وأقاربها لم يقبلوا على زيارتها مهنيين كما هي العادة . . والذين زاروها منهم جاؤوا كان كل دوافعهم هي الفرجة عليها وهي زوجها . . المسلمة التي تزوجت يهوديا . . حتى عندما دعوا عبد الله نور الدين صاحب دكان الجواهرجى الذي يشاركه فيه شريف . . جاء وحده بلا روحته واعتذر عنها بمرضها . . ورغم المجهود المأثور الذي كان يبذله لمجملهما بفرجته بهما وتوئنته لهما إلا أن عينيه كانتا تفضحانه وهو يقللها بهما وبينه كأنه يتفرج عليهما ويحاول أن يكتشف ما جذب أحدهما إلى

الآخر . . اما أفراد عائلة شريف وأقاربه فقد كانوا أكثر جرأة في الاقبال عليهما وأكثر حرصا على توثيق الصلات بهما . ولكن ناهد لا تستطيع أن تندمج فيهم . ولا تزال تحس وهي تستقبلهم بقلل المسئوليات العائلية أنهم كلهم يهود . ورغم أن احساسها بهم ليس مركزا على أنهم يهود إلا أنها تحس بفواصل يفصلها عنهم . كان لهم دنيا أخرى لا تراها ويعيشون في أسرار لا تعرفها . وربما كان مما ضايق ناهد أكثر أن بعض النساء التي كانت تعرفهن وتتعمد تحالهن والابتعاد عنهن لاحساسها بأنهن تافهات منحلات ، كن يقبلن عليها ويحاولن فرض أنفسهن عليها واكتساب صداقتها بتوالي زيارتها والسؤال عنها . . كأنهن اعتبرن أنها في دنياهن . . دنيا المغامرات العاطفية والتحرر من التقاليد والمظاهر المحترمة . . لمجرد أنها تزوجت من يهودي حتى لو كان قد أسلم . مجرد أنه أصبح معروفا أن لها قصة حب . . ولكنها لم تصف أمامهن . ولا تزال تتعمد تحالهن وابتعادهن .

إلى أن استطاعت ناهد أن تتغلب على هذا النقص الاجتماعي الذي تعانيه هي وشريف . فقد كانت قد انتقلت إلى العمل في مكتبة أجنبية تابعة للسفارة الأمريكية . كعادتها في التنقل من مجال إلى مجال بحكم هوايتها للتجربة . وقد استطاعت كالعادة أن تنجح وتثبت شخصيتها الدراسية في هذا العمل الجديد . واكتسبت من الأجانب . ولا يعير أي واحد منهم عن الآخر أنه مسلم أو مسيحي أو يهودي أو من اليهوديين . كل ما يعرف عن كل منهم أنه أمريكي أو فرسي أو بريطاني أو هندي أو من بلاد الرواق الوراق . واستراحت لهذا المجتمع . وبدأت تدعو أفرادها إلى بيتها وتلبس دعواتهم . . وتنطلق معهم هي وزوجها شريف في نزعات ورحلات وسهرات . . وهؤلاء الأجانب لا يعرفون أنها مسلمة وأن زوجها كان يهوديا . وحتى لو عرفوا لا يهتمون ويعتمدون على ما يظهر منهما وعليهما في تحديد العلاقة معهما . . أنهم يكتفون بمعركة أنهما زوج وزوجة . . وفي الوقت نفسه كان شريف أيضاً له اتصالات ببعض الأجانب من رجال الأعمال . وقد يكون بينهم يهود . وهذا هو الآخر يدعوهم ويلبى دعواتهم

بمصاحبة ناهد . . وعاشا سعيدين هانئين بمصاحبة هذا المجتمع الأجنبي .

أما فيما بينهم فلم يكن لقصتهما أي اثر على حياتهما . . ولم يحسا بأي فارق بينهما لأنها مسلمة ولأنه كان يهوديا حتى وقت قريب . وشريف لا يمارس فروض الاسلام . . وعلى الأخص لا يصلي الفروض الخمسة . ولا يستسلم للالتكال على الله وترديد آيات القران والدعوات كعادة كل المسلمين . وكان يمكن أن تلاحظ تجاهله التعبير عن إسلامه وتدفعه إلى أداء فروض الاسلام . . حتى تقاوم الاحساس بأنه لم يلجأ إلى الاسلام ايمانا به إنما كمجرد إجراء لإنهاء عقد زواجه بها . اشتراها باسلامه . ولكن كل هذا لم يخطر على بالها . وتزى في شريف مسلما كباقي المسلمين . . فهي نفسها لا تصلي ولا فرضا واحدا من الفروض الخمسة . ولا تتبع إلا صيام شهر رمضان . وربما كانت تتبع الصيام للامان بجذواه الصحية وبحكم تعودها لا لمجرد الخضوع لما فرضه الله . . وشريف أيضا يشاركها صيام رمضان . . ولم يخطر على بالها أبدا أن تنهيه مانه ليس صائما إلا وهو بجانبها داخل البيت فإذا ابتعد عنها وخرج وحده إلى عمله فربما كان يسلي صيامه ولو بالتدخين . يكفي أنها تراه صائما ولم يحدث أبدا أن جمعهما حديث حول الأديان . . سواء عن الاسلام أو عن اليهودية أو عن أي دين آخر . . لا تعدا . . ولكن لأنه لا يخطر على بال أحدهما ولا يحيره أي دين . . أن الأديان أوحى بها الله لإسعاد خلقه وهما من السعداء . . إلى أن كان يوم . .

ودخل عليها شريف والفرحة تزغرد فوق كل ملامحه وقال :

- لقد جاء خمسة من أقاربى وثلاثة من أصدقائى من اسرائيل . وقد ذهبوا بمجريد وصولهم لزيارة بابا وأخواتى . . وذهبت إليهم هناك . . لقد مرت اعوام طويلة لم أرىهم . . ورغم أنهم شاخوا إلا أنى أحسست كأن كلا منهم لا يزال شابا وصيبيا . . وعشنا في الذكريات الحلوة . . وقد دعوتهم لتناول العشاء معنا عدا .

وقالت ناهد كأنها فوجئت

- لماذا جاعوا . .

وقال شريف كأنه يلومها :

- ألا تعلمين أن الحدود فتحت بين مصر وإسرائيل ولم يعد هناك ما يفرق بين الأقارب والأصدقاء . كلنا الآن نعيش وكأننا في بلد واحد

وقالت وهي ساهمة :

- وهل يعلمون حكايتنا . .

وقال شريف في نفور كان ناهد تجرح فرحته

- أي حكاية ؟

قالت كأنها تذكرت حكاية كانت قد نسيتها

- حكاية أنك لم تعد يهوديا وأصبحت مسلما .

وصاح في عنف

- ما دخلهم في هذه الحكاية وماذا يهمهم منا . . سواء كنت يهوديا أو مسلما فنحن اقارب واصدقاء . . وقالت كأنها مستسمة :

- لك حق

وقال وقد عادت إليه كل فرحته .

- اني أريد أن أقدم لهم كل ما افتقدوه في مصر . . خصوصا

الملوخية

ولأول مرة وعلى غير عادته بدأ شريف يقوم بنفسه بأعداد وإيعة . .
ويتعمد الاشراف والتساؤل عن كل شيء . وكان أغرب ما قام به أن حرص
على تقديم زجاجات مشروب البيرة مصنوعة في مصر وجمع معها غلب بيرة
مصنوعة في إسرائيل . .

وكانت ناهد حائرة وهي تستقبل المدعوين . . انها تقتل الفرحة
وبفتل الترحيب وتقاوم احساسا غريبا بأنها تخاف على بيتها من أن يستولي
عليه هؤلاء المدعوون . .

وقد سمعت شريف وهو يقدم أكواب البيرة يقول لهم

- كل منكم يشرب البيرة المصرية . . وأنا وحدي ومن يقيم معي في
مصر يشرب البيرة الاسرائيلية . . حتى يشعر كل منا بأنه يعيش في بلد
الأخر . . لقد عدنا واجتمعنا كلنا في وطن واحد

وقد كانت الأحاديث تدور بينهم أحيانا بالعربية وأحيانا بالانجليزية
وأحيانا بالعبرية . وناهد تعلم أن شريف لا يتكلم بالعبرية ولكنه يفهمها
وكانت كلها أحاديث بينهم وبين بعض يشترك فيها شريف وعائلته . أما
هي فلا يتعمد أحد منهم بذل أي مجهود في التحدث إليها . . حتى الزوجات
المدعوات كن يتحدثن بعضهن مع بعض ولا يوجهن لها الحديث إلا إذا
لاشر انه يحب أن يشركنها ولو بكلمة . . وقد سألت ناهد إحدى اللاتي
تصلطن عليها بالكلام معها .

- واين أولادك . . لماذا لم يأتون معك إلى مصر . . وقالت الام

هزاعكة

- انهم لا يشعرون بالوحشة إلى مصر كما عشنا نحن نشعر بها
فهد ولدوا في إسرائيل . . وقد حدثتهم كثيرا عن مصر ولكنهم لم يعيشوا
فهمها . . وقد وعدوا بالحضور إلى مصر في العام القادم ليتفرجوا على بلد
آباءهم

- أن آلاف من اليهود يزورون مصر . . ولكن لا يزورها من المصريين إلا من يعتقد أنه يستطيع أن يحقق مصلحة هناك . ومرسى عبد السميع هو مقال بناء ولعله يعتقد أن إسرائيل ستقيم مبانى كثيرة في مصر ويحاول أن يكتسب ودها في علاقته بها . . هكذا أثبتت التقارير والدراسات . .

وقال في حدة

- إذا كانت زيارة إسرائيل لا تكون إلا لتحقيق مصلحة . . فيجب أن نعلم أن تجار الذهب والمجوهرات والصياغ وأسائذة كحت الماس الصام وتحويله إلى قصوص . . و . . و . . كلهم سواء كانوا في مصر أو من أى بلد في العالم قد أصبحوا يقيمون في إسرائيل . . وأنا صائغ وجواهرجى وسأحقق مكاسب ضخمة بالاتصال بهم . .

وقالت في برود :

- اذهب اليهم وحدك . . فهو عملك وليس عملى . . ولا شك أنك تعلم أى لم أكن سعيدة بزيارتهم لنا ولن أكون سعيدة بأن أذهب اليهم

وسأمر شريف إلى إسرائيل وحده .

وناهد رغم أن دراستها شملت العلوم السياسية . . ورغم أن من يادومها الرغبة في الاطلاع واستيعاب كل الشئون التى تحطر على فكرها بما فيها الشئون السياسية . . إلا أنها لم تشترك أبداً في أى تحرك سياسى ولم يهر . عنها أبداً أنها صاحبة موقف ولا حتى رأى سياسى . أنها لا تعتمد الاشرارات أبداً في أى أحداث سياسية كأنها تكتفى بالوصول إلى المنطق السياسى . تحدد به اقتناعا سياسيا تحتفظ به داخل منطقها الخاص . . هذا المنطق كان يوحى إلى عقلها منذ زمان طويل بوقف الحرب بين مصر وإسرائيل . . ولكن نفس المنطق لم يكن يصل بها إلى الثقة في إسرائيل . . أو الانساع بكيانها كما هو قائم وكما وصلت به إليه . . كأنه منطق ست

وسكنت ناهد كأنها تتبلغ هذا الكلام . . وقد مضت الدعوة وهى تحس بوحدة عجيبة كان هؤلاء الناس استولوا فعلاً على بيتها ولا يحتاجون إليها إلا لتلبية الطلبات وتقديم الطعام . كأنها مجرد خادمة . إنها ليست سبت البيت . . لقد أصبحت في هذه الساعات خادمة البيت . .

وبعد أن انصرفوا انطلق شريف بفروحه يروى لها ما سمعه من هذا أو ذاك . وهى تستمع إليه دون تعليق ولا اهتمام . . وربما أحس بعدم ترحيبها بهذه الدعوة فلم يكررها . ولكن لاشك أنه كان على اتصال دائم بمعارفه الذين جاؤا إلى مصر . . وكان أحيانا يعود ويروى لها أخبار لقائهم بهم ولكنه غالبا لا يروى شيئاً رغم احساسها بأنه كان معهم . . وبعد ثلاث أسابيع فاجأها مرة ثانية قائلاً في فرحة :

- سنسافر إلى إسرائيل بعد غد .

وارتعشت رموشها فوق عينيها كأنها تطرد سحابة تعميها ثم قالت وهى تحاول أن تكون هادئة :

- لن أسافر معك . .

وصاح غاضبا في عنف :

- لماذا . . لماذا لا تريدان زيارة إسرائيل . . لقد انتهى ما كان وتحت الانفتاح . . وآلاف من المصريين مسلمين وأقباط يزورون إسرائيل . . ومرسى بيه عبد السميع بجلالة قدره سيزور إسرائيل . . وقد سبق أن اتصل بى وطلب منى أن أعرفه بأصدقائى الذين جاؤا من إسرائيل وأقا لهم دعوة فخمة . .

وقالت مقاطعة وهى تبتذل جهداً للاحتفاظ بهدوئها مع ابتسامة

ساخرة

البيت التي لم تعد تطبق ثوبا من ثيابها ولكنها لا تمرقه وترميه وتتخلص منه ولكنها تغيره وتعديل فيه إلى أن تقتنع به وترتاح إليه .

فلم تكن المظاهر السياسية والدوافع الوطنية وحدها هي التي دفعت ناهد إلى رفض زيارة إسرائيل . ولكنه عدم اقتناعها بوضع إسرائيل وعدم ارتياحها لها .

وقد عاد شريف من إسرائيل بعد أسبوعين . . وأخذ يحكي لناهد عما شاهده وسمعه . . وقالت له بعد أن استمعت إليه طويلا

- ألم تحاول أن تعرف منهم سر اعتداءاتهم على العرب وتحاول معهم البحث عن طريق لوقف هذه الاعتداءات .

وصاح شريف في حماس

- انها ليست اعتداءات . . انه دفاع عن النفس . . وكل يهودي يعيش في إسرائيل وهو في حالة خوف ولا تنصوري عدد من ضاع منهم سواء في حرب أو بلا حرب .

وقالت كأنها تلومه :

- الذين ضاعوا من العرب أضعاف الأضعاف . . حتى أن إسرائيل اليوم تبادل ثلاثة من اليهود الذين يأسرهم العرب بثلاثة آلاف عربي يأسرونهم . . وحتى أصبح العرب هم الدين يطالبون بالسلام واليهود هم الذين يرفضون السلام . .

وقال شريف كأنه ناثر

- أي سلام هذا . . أن هذا الوطن لا يمكن أن يكون إلا وطننا لليهود أو وطننا للعرب . . لعلك تتصورين لهذا الوطن نظاما ديموقراطية تجمع بين الجانبين . . فاعلمي أن العرب يتزايدون في الانتخاب كالدود . . كل امرأة

عربية تنجب سبعا أو تسعا أو عشرة من الأولاد . . وسيأتي اليوم الذي يسيطر فيه العرب على اليهود ويحكمون إسرائيل باسم الأغلبية الديموقراطية . . فحتى الديموقراطية لاتصون مستقبل اليهود إذا عاشوا مع العرب .

وقالت ناهد وهي تنظر إليه بازدراء كأنها تتباهى بثقافتها :

- ان النساء العرب ينجن أسلحة . . كل ابن لها هو سلاح لضمان المستقبل مهما كلفها إنجاب . . وانجاب الأولاد غال يكلف الكثير كالثمن الذي يدفع لاستيراد الأسلحة . . ويوم يتحقق السلام العادل فربما تعدت النساء الراحة من انجاب كل هؤلاء الأولاد . .

وصاح شريف وكأنه يهرب من الكلام :

- ان هذه المواضيع لم تكن مجالا للكلام مع من قابلتهم في إسرائيل . . ولم تكن هناك مناسبة له . .

وقالت ناهد ساخرة

- على كل حال فاننا لم نسمع عن أي يهودي من أصل مصري له دار أو أي قيمة في المراكز القيادية بإسرائيل بحيث يمكن أن تكون هناك جدوى من مناقشته في مثل هذا الحديث . ان كل يهود مصري كل اليهود العرب كانوا يعتبرون من أغنى يهود الدنيا . . فقد كانوا يعيشون في الوطن العربي ولهم قيمة تصل إلى قمة السيطرة الاقتصادية . ثم ذهبوا إلى إسرائيل ليعيشوا بلا قيمة . وكانهم مجرد أجراء لتأدية الأعمال التي يحتاج إليها يهود أوروبا . . كأنهم الزنوج التي كانت تهربهم أمريكا إلى أرضها لتسخيرهم كأيد عاملة . . كأنهم زنوج الفلاشا الذين هربتهم إسرائيل أخيرا من الحبشة ليكونوا عبيدا ليهود أوروبا وأمريكا . .

وصرخ شريف :

- ان يهود مصر لم يخطفوا . . لقد اختاروا . . ومن حق كل انسان أن يختار وطنه . . بل أن القوانين الحديثة تتيح لكل يهودى أن يجمع بين وطنين ويحمل شخصيتين وبطاعتين . .

وقالت وهى تضحك ضحكة مرة :

- لعلك تفكر فى أن تحمل بطاقة مصرية وبطاقة اسرائيلية

ولم يرد شريف عليها واختلفى من امامها كأنه يهرب منها

ومرت أسابيع وقد بدا يعيشان حياة كأنها حياة أخرى . وان كان كل منهما يعتمد ألا يثير مع الآخر حديثا يدفعهما إلى مثل هذه المناقشات الحادة . .

إلى أن جاء شريف يبلغها أنه مضطر للسفر مرة أخرى إلى اسرائيل . . وسكنت . . وسافر وحده . . ووجدت نفسها بعد أن سافر زوجها تقوم وهى فى حالة عادية كأنها لا تفكر فيما يمكن أن يحيرها أو يثيرها وجمعت ثيابها ولوازمها فى حقيبتين . وحملتها وذهبت لتقيم فى بيت أختها . .

واستقبلتها أختها فى فرحة هائلة . . كأنها فى انتظار عودتها . . وفتحت لها غرفتها لتقيم فيها كما تعودت . . وبدأت الأخت وزوجها يسألانها عما حدث . . وردت عليهما ناهد فى كلمتين دون أن تترك لهما مجالاً للمناقشات أو المزيد من التساؤلات . . لقد عودتهما ألا يحاسبها أو يتدخل فى شئونها أحد .

وقد عاد شريف من اسرائيل بعد اسبوع . . وهرع ملهوقا إلى بيته . . لقد حاول أكثر من مرة أن يتصل بزوجته بالتليفون وهو هناك فلم يكن يجدها فى البيت . . وألقى بحفائبه . . وجرى إليها . . لأبد أمها فى بيت أختها . . واستقبلته فى هدوء . . وتركته يقبل وجنتيها دون أن تبادلها بقلايتها . وقال فى صمت مرتعش

- لماذا أنت هنا ؟

وقالت منبسطة ابتسامة هادئة طبيعية :

- لأنى سأبقى هنا . .

وصاح :

- لماذا . . ماذا حدث . . ماذا تريدين ؟

وشدته من يده وهى محتفظة بابتسامتها وأجلسته على مقعد كانها تومر له الراحة وتوصيه باحتمال ما سيسمعه . . وقالت :

- ان حكايتنا كانت حكاية بينى وبينك انفصلنا بها عن المجتمع كله المجتمع الذى يحيط بى ويحيط بك . وكانت كل دوافعها هو اقتناعى بك واقتناعك بى . . واحساسى بك واحساسك بى . . وقد فقدت اقتناعى واحساسى بك . . لذلك يجب أن ننفصل . . لأنه ليس لدينا شيء آخر يجمعنا سواء الاقتناع أو الاحساس . وكما اتخذنا قرار الزواج وحدنا فاسا وحدنا نتخذ قرار الانفصال الطلاق ولا تحاول أن تسألنى لماذا . . كل ما قلته لك هو مجرد الاقتناع والاحساس . .

وأطال شريف فى حديث يحاول به أن يحتفظ باقتناعها واحساسها به كما كان ولكنها مصممة وهدهوها الكامل يغيظه ويثيره حتى قال كأنه يهددها :

- لقد أسلمت لاتزوجك . . فماذا اصنع بالاسلام بعد أن تتركينى . . وقالت فى لهجة حانية :

- ان الدين هو التعبير عما بينك وبين الله . . لا مجرد التعبير عما بينى وبينك . . وأنت حر فى التعبير عما بينك وبين الله . .

وسطر نفسه قافزا كأنه يهرب من جحيم . . وهى تنظر وراءه مودعة فى هممت حزين . . كأنها تودع نهاية فشل . .

لقد فشلت لأول مرة فى حياتها . .



أبى ابن الشحاذ..

ابدا . ولكن لعله كان يهرب من الشحاذة - خصوصا بعد أن كبر ولم يعد طفلا يثير شفقة الناس - خوفا من أن يفكر أبيه يوما في أن يقوم بتشويهه ويزن ساقه أو ذراعه ليضمن له استدرار شفقة الناس . . ثم إن الشحاذة ليست مهنة سليمة مهما ارتفع دخلها . إنها مهنة تفرض صبر طويل على حالة من الذل والهوان يمثلها الشحاذ ساعات طويلة وهو مجمد في داخلها وملقى على الرصيف كأنه كرم من الزبالة . .

وكان يقيم مع والده في عشة صغيرة من الصفيح ملقاة فوق رمال صحراء خلف قراة المجاورين . وكان على مقربة عشة أخرى يقيم فيها الشيخ عاشور مقرئ المقابر . وعلى الناصية الأخرى تقيم أم فردوس ومما انتنتها الطفلة فردوس في حفرة واسعة من الأرض يغطونها بقطع من اللماش والواح من الصفيح . . وكان يلجح رجالا يأتون إلى حيم في المساء ويلقون بأنفسهم في إحدى الحفر المنتشرة في الرمال وينامون حتى الصباح ثم يحتفون ، وقد يعودون أو لا يعودون . وكان يلجح أحيانا بعض هؤلاء الرجال ينزلق الواحد منهم إلى حفرة أم فردوس ويغيب ساعة ثم يظهر ويهتفي . وعرف فيما بعد أن أم فردوس تبيع نفسها لمن يهبط إليها في الحفرة بطير خمسة قروش وأحيانا مقابل قرشين . ولا يدري هل تبيع معها ابنتها أيضا أم لا تزال تبخل بها عن أمتاع الرجال . .

وكان يعيش هذا المجتمع كأنه مجتمع طبيعي . . مجتمع الدنيا لها لا يستطيع أن يفرق فيه بين الحرام والحلال وبين الصح والخطأ كل ما هناك أن الدنيا فلوس . . والذين يعيشون في البيوت معهم من الفلوس أكثر مما مع الذين يعيشون في العشش . . ولكن لا فارق بين الناس . . كلهم ناس . . وكان يحب أم فردوس ويصحبها كأنها أمه . . وهي أيضا كانت تحبه وتدله بضحكاتها وتضفي عليه كل ما ينقصه من راحة الأم . وتدعوه كثيرا ليأكل معها هي وابنتها إذا وجدت عندها يوما لها شيء ليشاركها الأكل . . وهي التي كانت تحب له جلبابه القديم الذي كان دائما ممرقا حتى أصبح كله من خيط أم فردوس . . وكانت هي أول من

منذ وعى منصور الحياة وهو يعيش مع أب شحاذ . يحترف الشحاذة . . ثم عرف أن ذراع أبيه المبتورة وكشفه الموح وساقه الملتوية الملوصة ومظهره الفلبان المشوه ليس نتيجة حادث وقع له أو نتيجة قدر ولد به . ولكنهم أخذوه وهو طفل وشوهوه حتى يستطيع أن يحترف الشحاذة ويحقق النجاح في حياته كشحاذ . . وأمه أيضا كانت شحاذة ولكنها ماتت وهو لا يزال في العام الأول من عمره . . ولا يخطر على باله أنها ماتت من الجوع فرغم أنهم شحاذون فإن الجوع لم يطرا على حياتهم ابدا . ربما ماتت من ثقل حياتها مع أبيه . . أن مجرد المعيشة معه تزهق الروح . . وقد كان أبوه يصحبه معه للشحاذة منذ كان في الثانية من عمره . . والحمد لله أن أباه لم يفكر في أن يجري له عمليات تشويه حتى يعده ليكون شحاذا ناجحا . . ولكنه اعتمد على ادعاء العمى وإن هذا الابن الصغير هو الذي يقوده . . مع وضع هذا الطفل في مظهر الفقر حتى أنه كان يلبسه جلبابا قذرا ممزقا لا يكاد يحل الشتاء حتى يرتعش من تحته . . وأبوه يبارك رعيته لأنها تدر عليه دخلا أكبر من الشحاذة بإثارة اشفاق الناس . .

ومنذ البداية وهو لا يهرب من الشحاذة ولا يطيقها حتى أنه بعد أن كبر قليلا كان يتعمد أحيانا أن يهرب من أبيه قبل أن يستيقظ من النوم حتى لا يأخذه معه في جولة كل يوم . . وليس ذلك لأن الله وهبه إحساسا بالاعتزاز بالنفس يرفعه عن أن يكون شحاذ . . أنه إلى اليوم لا يزال يعتبر الشحاذة مهنة شريفة محترمة تعتمد على فن وذكاء كأي مهنة أخرى . . وتعتمد على موهبة في التمثيل كموهبة الممثلين على المسرح أو على شاشة السينما والفرق أن الشحاذ يمثل على رصيف الشارع ويمثل دورا واحدا لا ينتهي

وضع في قدميه حذاء لا يدرى أين وجدته . . وكان حذاء واسعاً يحره
بقدميه . . وهو فرح به . . وقد وضع قدميه في حذاء قبل أن يضعهما في
جورب . . مضت سنوات قبل أن تصل قدميه إلى جورب . . وهو قد تعود
منذ البداية أن يمد يده إلى كل ما يستطيع أن يمدّها إليه . . قد يمدّها إلى
تفاحة معروضة أمام دكان الفكهاني . . أو يمدّها إلى حزمة من أعواد
الملوخية معروضة أمام دكان الخضروات . . أو يمدّها إلى كيس معلق لدى
دكان بقال دون أن يعرف ما فيه ولكن لأشك أن فيه شيئاً يؤكل . . وفي مرة
مد يده إلى دجاجة صاحبة واستطاع أن يأخذها لنفسه . . إن أغلب ما تمتد
إليه يده يحمله إلى أم فردوس ويشاركها فيه . . وقد كان يهوى مد يده أكثر
مما يهوى الشحاذة مع أبيه . . ولم يكن يتجرأ على مد يده قبل أن يفكر . .
أنه ذكي . . يحسب حساب كل ما حوله . . ولم يحدث أبداً أن ضبظت يده
الممدودة . . هل ولد ومن طبيعته أن يكون لصاً أو نشالاً . . لا يهم . . إن
السرقه هي نوع من الشحاذة . . ولكن السرقه تغفى الشحاذ من الذل
والهوان ومن الصبر الطويل وهو مكوم على الرصيف ككوم الزبالة حتى
يستدر اشفاق الناس . . أن اللص هو سيد نفسه ، والباس تحت رحمة
وليس هو الذي تحت رحمتهم . .

وهو أيضاً يحب الشيخ عاشور ويقضى الليالي أحياناً يسمعه وهو يرتل
القرآن لنفسه . . وأحياناً كان يصحبه وهو يطوف بين المقابر إلى أن يدعوه
أحد إلى مقبرة فيجلس ملتصقاً بها ويتلو تلاوة سريعة تختلط كلماتها وترن
كانها عجلات قطار يجرى في منتهى سرعته . . ثم ينتفض واقفاً يمد يده
ليأخذ أتاعبه . . إلا إذا نهره أهل المقبرة وطلبوا منه أن يستمر في التلاوة . .
فيعود ويجلس مستسلماً ويطلق رنين عجلات القطار . . ولكن الشيخ عاشور
معروف بأنه في منتهى البخل . . ولم يمن على منصور أبداً بشيء ولا حتى
بلقمة خبز رغم ازدهام عشته دائماً بأرغفة العيش التي يجمعها من
المقابر . . وعندما كان يسمح له بمصاحبته إلى المقابر كان الأهالي أحياناً
يشفقون على هذا الصبي الذي يصاحب المرقى ، وقد يظنون أنه ابنه
فيحسنون عليه بقروش بعد أن يكون قد دفعوا أتاعب عاشور . ثم لا يكادان

يحطوان خطوة بعيداً عن المقبرة حتى يمد الشيخ عاشور يده دون أن ينطق
بكلمة ويأخذ القروش التي وصلت ليد منصور . . ويستسلم منصور دون أن
ينطق بكلمة هو الآخر . . لقد كان الشيخ عاشور يعتقد أنه يمن على منصور
بأنه يتركه يستمع إليه أو يصحبه . . وهذا يكفي . . وفي يوم قال منصور
للشيخ عاشور في استجداء :

- حفظني ياسيدنا الشيخ .

وكان يريد فعلاً أن يحفظ القرآن . كانت من طبيعته أن يتطلع إلى
اكتساب كل شيء . . وهو يريد أن يكتسب حفظ القرآن . . لم يكن يخطر على
باله أن يكون مقرئاً هو الآخر كالشيخ عاشور . ولكنه فقط يريد أن يكتسب
شيئاً جديداً يضيفه في بناء نفسه . . ومن يدرى . ربما احتاج يوماً أن
يثبت أنه حافظ للقرآن . . وقال له الشيخ عاشور كأنه ينهره :

- وماذا يعود عليّ أنا لو حفظتك . هل تريدني أن أقضى الليالي ألقنتك
كل كلمة وأهلك لسانك وأحرق دمي وليس لي من نصيب إلا التمتع برؤية
وجهك . قل لأبيك أن يخرج بعض ما عنده ويدفع ما يعرضني عن
الحفظك

ومنصور يعرف أن أباه لا يمكن أن يخرج مليماً واحداً ليدفعه لأحد
ولا لابه ولا حتى لنفسه . . فكل حياته وكل ما حوله شحاذة . . إن كل لقمة
هاكلها أو يعطيها لابنه ليأكلها لقمة مشحوزة . . وكل ما يستر به جسده
وجسد ابنه مشحوز . . حتى لو مرض فهو يستطيع أن يشعّد الدواء . .
ورغم ذلك فمنصور يعرف أن أباه قد جمع من الشحاذة قطعاً من النقود
لا تعد ولا تحصى . . مئات وربما آلاف . . وهو يحتفظ بما جمعه داخل المرتبة
التي يمدّها على الأرض وينام عليها وحده . . بينما يترك ابنه ينام على قطعة
من الحيش كان قد وجدها في أكوام الزبالة أو لعله شحّذاها . . وكان يعد أن
يهره إلى العشة في المساء ويجد فيها منصور يحلس قليلاً يسترد انفاسه ثم
يصرخ في ابنه :

وصاح الشيخ عاشور في وجهه :

.. تتبارك به ولعل الله يرضى عنك ويعينك على حفظ القرآن .. ثم يجب دائما أن تعرف ماذا حفظت من المصحف حتى لو كان بمجرد النظر إلى الآية دون أن تقرأها ..

وهمس منصور بينه وبين نفسه .. بسيطة .. إنه يرى كثيرا من مصاحف القرآن موضوعة فوق المقابر خصوصا في المدافن الكبيرة القديمة .. وخرج في الصباح إلى قراة المجاورين ، وأخذ يطوف بين المقابر إلى أن استطاع أن يتسلل إلى مدفن واسع كأنه قصر ، ويعرف إنه مدفن لأحد الباشوات القدامى ، ولا يزال أبناء الباشا وأحفاده يدفنون فيه .. ووجد على قبر الباشا مصحفا كبيرا تلمع على غلافه خطوط من ذهب .. ويبدو أنه مصحف جديد لعل الأحفاد جاعوا به حديثا أحياء لذكرى الباشا .. وقرر أن يمد يده إلى هذا المصحف ليتفأخر به أمام الشيخ عاشور ، ويتباهى بأن الله راض عنه حتى وهبه القدرة على الحصول على كتابه المقدس في أفخم صورة .. ولكن كيف يحمل هذا المصحف ويخرج به أمام الناس .. وهده ذكاؤه بسرعة فنزع مخده موضوعة على أريكة من أرائك المدفن .. نزعها من الكيس الذي يغطيها ووضع مكانها المصحف الكبير ثم حمل الكيس فوق ظهره وسار به بين الناس .. وطبعاً لم يخطر على بال أحد أنه يحمل تحفة مسروقة .. وهو مطمئن .. أنه ليس لصاً .. فكتاب الله لا يمكن أن يسرق .. وهو ملك لكل يد تصل إليه لأنه ليس ملكاً لأحد ، ولكه ملك الله ..

وبهر الشيخ عاشور فعلاً وعباده مبجلتان في جمال وفخامة المصحف المطبوع .. ثم وضعه بجانبه وشد مصحفه القديم المتوسط الحجم قائلاً لمصور :

.. ما جئت به سيكون لي .. وهذا يكفيك ..

وبذل الشيخ عاشور يومها مجهوداً أكبر في تحفيظ منصور ..

.. أبعد عن وجهي .. ولا أريدك أن تدخل على إلا بعد أن أنام .. ويخرج منصور من العشة طائفاً .. ولكنه كان يستطيع أن يلتصص بعينه على أبيه من ثقب في لوح الصفيح فيراه يخرجاً سكيناً صغيراً يشق به المرتبة التي ينام عليها .. ثم يجمع من بين ثنايا جلباب كمية من النقود يدسها داخل المرتبة .. ثم يعود ويخرج من جلبابه أيضاً خيط وابرة ويحكى الثقب الذي فتحه في المرتبة .. ثم يعيد كل شيء إلى مكانه ويمتدد فوق المرتبة وينام .. ينام فوق الكنوز التي يجمعها .. وقد انتفضت هذه المرتبة بما فيها حتى اضطرب أبوه يوماً إلى أن يشحذ مرتبة ثانية يضعها فوق الأولى ويدس فيها ما يستجد من قطع النقود وينام عليها .. والغريب أن أباه كان يترك المرتبتين كل صباح ويخرج إلى سوق الشحادة وهو مطمئن إلى أن أحداً لم يصل إليهما ليسرق الكنز .. مع أن العشة الصفيح تكفي لمسة يده لتمتار كلها وتصبح الكنوز في المراء .. لعله كان مطمئناً إلى أن أحداً لا يمكن أن يصدق أنه يحتفظ في عشته بكنز .. أو ربما كان من تقاليد الحي أن لا يعتدى أحد من أهله على الآخر أو يقتحم عشته .. وفعلاً لم يضع مليماً واحداً مما جمعه أبوه في المرتبة طوال هذا العمر الطويل ..

* واحتار منصور من أين يأتي للشيخ عاشور بشمن تحفيظه القرآن .. إلى أن لح وهو يجوب الشوارع والحواري جلياباً واسعاً معلقاً على حبل ينشر عليه ما يغسل من ثياب إلى أن تجف .. واستطاع أن يمد يده إلى هذا الجلباب ويجري به إلى الشيخ عاشور ليعطيه له كدفعة من أتعابه .. وقلب الشيخ عاشور الجلباب بين يديه ولم يسأل منصور من أين أتى به .. ثم بدأ فوراً في تحفيظه القرآن .. يتلو الآية ليردها وراءه إلى أن يحفظها .. وبدأ معه بتلاوة الفاتحة .. ثم قال له

.. ينقصك مصحف ..

وقال منصور

.. ماذا أفعل بالمصحف وأنا لا أقرأ ..

إلى أن قال له منصور يوماً :

- أريد أن أقرأ ياسيدنا الشيخ . . علمنى القراءة . .

وقال له الشيخ عاشور دون أن يعلق بشيء :

جـ اذهب إلى الشيخ عبد المولى فى حوش بركات بالمجاورين

وكان حوش بركات من المرافق القديمة الفخمة . . كأنه قصر من قصور الأمراء . . وكان أفراد عائلة بركات من الكرم وسعة العقل حتى إنهم خصصوا جانباً من الحوش الواسع ليكون شبه مدرسة مجانية لتعليم أطفال الفقراء القراءة والكتابة . وعهدوا بهذه المدرسة إلى الشيخ عبد المولى - بعد أن تولى الشيخ الذى تولاها قبله - ويدفعون له راتباً شهرياً . وعندما ذهب منصور إلى الشيخ عبد المولى نظر إليه كأنه يستعرض شكله ثم سأل فى قرف وازدراء :

- ابن من يواود ؟

وقال منصور وهو يرتعش أمام الشيخ عبد المولى

- ابن برهوم الاكتح . .

وقال عبد المولى بعد أن بصق بصفتين فى قرف

- برهوم الشحاذ . . امش من أمامى ، وإن رأيتك مرة ثانية فساقطع رقبتك . . ولكن منصور لم يمش من أمام الشيخ واخذ يتحایل عليه ويبكى حتى يجود عليه بأن يعلمه القراءة والكتابة . ولكنه فهم من كلام الشيخ أن المدرسة وإن كانت مدرسة خيرية مجانية إلا أنه يجب أن يدفع له أن الشيخ يقول أن الطفل كى يتعلم يجب أن يحس بأن أمه يدفع ثمن تعليمه . فالطفل لا يشعر أبداً بحاجته إلى التعليم . كل ما يشعر به هو حاجته إلى الهرب من المدرسة ومن الذين يعلمونه . . والشيخ عبد المولى لا يقبل من

الذى يعلمه أقل من جنبيه كامل فى أول كل شهر . . علاوة على ما تحوّد به العائلة وتوسله له مع الأب . .

ولكن منصور بعكس ما يقول الشيخ يحس أنه يريد أن يتعلم . . أنه يعار من الأطفال الذين يرامهم فى الشوارع يحملون الكتب وحفائب المدرسة . . ويتردد كثيراً على أبواب المدارس ويقف يتفرج على الطلبة الصغار وهو يتمنى أن يكون معهم . ما ذنبه إذا كان ابن شحاذ حتى يحرم من أن يكون كبقية الأطفال . إنه يريد أن يتعلم كما يتعلمون ولكن من أين يأتى بالجنبيه الذى يدفعه كل شهر للشيخ عبد المولى . إنه رغم اعتماده على يده الخفيفة التى يمدّها لكل ما يريد إلا أنه لم يعود حتى اليوم أن يمدّها إلى الفتود . لم يسرق أو ينشل أبداً أى مبلغ من المال . ووجد نفسه منقاداً إلى فكرة خطرت له . . فذهب إلى حيهم ودخل إلى أم فردوس وطلب منها خيطاً وأبرة والمقص الذى تحتفظ به . ثم دخل إلى عشته وأبوه غائب عنها . . وفتح ثقباً فى حامة المرتبة ومد يده فيها وأخرج مجموعة من أوراق النقد الصغير أخذ يعدّ فيها حتى استكمل الجنبيه وبدأ يتعلم القراءة والكتابة . . والشيخ يقول له :

- قل لابيك يفتح يده ولا يحرمنا . . يشحذ لنا كما يشحذ لنفسه .

ومن يومها أصبح الطريق السهل أمامه هو الطريق إلى مد يده داخل المرتبة . حتى أنه استطاع أن يحصل على مقص خاص به كما حصل على الأبرة والخيط حتى لا يحتاج إلى أم فردوس وتكشف سره . وقد بدأت يده تمتد إلى أكثر مما يحتاج إليه الشيخ عبد المولى ليعلمه . لقد بدأ يعطى أيضاً الشيخ عاشور الذى يحفظه القرآن . . وكان يعطى أحياناً أم فردوس لبشرى له قطعة لحم فقد اشتاق أن يعض اللحم . . ولا أحد يسأله من أين يأتى بما فى يده . . لم يعود أهل الحي أن يسألوا من أين . . وهو فى نفس الوقت لا يزال يمارس موهبته فى أن يمد يده إلى كل ما يفرّقه بمد يده خارج المرتبة . . وقد استطاع أن يمد يده إلى عمامة كاملة أخذها إلى الشيخ عبد المولى هدية له حتى يهتم بتعليمه . . كما استطاع أن يمد يده إلى حذاء

جديد يضع فيه قدميه ولكنه تعذر عليه أن يجد جوربا يمد يده اليه فاشتراه من خزانة المرتبة . . كما لا يزال يعتمد على مد يده لياكل . . فيحصل على أصناف مما يؤكل يحملها إلى أم فردوس لتعدها له . وهو حريص على الاستمرار في حفظ القرآن حتى حفظ منه معظم سورة وآياته . . كما أنه كان حريصا على تعلم القراءة والكتابة حتى أحادها . .

وهو الآن يريد أن يحصل على شهادة . . الشهادة الابتدائية . . لماذا لا يحصل عليها كبقية أولاد الناس . وما ذنبه أنه ابن شحاذ ويقيم في عشة ملقاة في الرمال بعيدا عن حي المحاورين . .

وقال له الشيخ عبد المولى أنه يستطيع أن يحصل على الشهادة دون أن يلتحق بمدرسة . يتقدم إلى الإمتحان من منزله كما يفعل كثير من الأولاد . . والشهادة تحتاج إلى كتب وأوراق وأقلام . وقد استطاع أن يمد يده إلى كثير من الحقائق المدرسية التي يحملها طلبة المدارس الابتدائية ويجد فيها ما يحتاج إليه . . ولكنه كان أحيانا يضطر أن يمد يده داخل المرتبة ليحصل على ما يشتري به ما لا تصل إليه يديه . والشيخ عبد المولى لا يزال يواليه وإن كان قد رفع أجره إلى ثلاثة جنيهات في الشهر وما في داخل المرتبة يكفى دائما . .

إلى أن حدث ما حدث . .

فقد كان قد فتح الثقب في المرتبة ومد يده فيه عندما دخل أبوه إلى العشة فجاء وفي غير موعده . وما كاد يرى ابنه ويده ممدودة إلى مهبط الكنز حتى صرخ صرخة مدوية ورفع العكاز الذي يستند عليه وأماله به على رأس ابنه . . ولكنه ما كاد يرفع العكاز حتى سقط على الأرض وهو لا يزال يصرخ بكلمات كالعواء ويشوح بالعكاز ليضرب به . ومنصور لا يريد أن يهرب من أمام أبيه إلى خارج العشة . . ويبذل فيه كانه خائف عليه . ويقول كلاما ما يستجديه به أن يهدأ ويتفاهم . . وهو يردد :

- اقتلنى يا بوى . . اقتلنى إذا أردت . .

وفي هذه اللحظة كان يمر أمام العشة عدد من الأفراد المشردين الذين يعودوا أن يفدوا على الصحراء ، ويناموا في الحفر ، ويختفوا في الصباح . أفراد ليسوا من أهل الحي . . وسمعوا الصراخ فأنحنوا إلى داخل العشة مستطلعين فإذا بهم يرون القروش مدلاة من ثقب المرتبة المفتوح ، فسقطوا فوق المرتبة يمزقونها ويستولون على ما يجدونه فيها . . فتحتوا خزانة برهوم الاكتع الشحاذ . وهو راقد على الأرض يصرخ ويشوح بعكازه . ولم يتوقف منصور بل انضم إلى المهاجمين وأخذ يجمع هو الآخر ما تصل إليه دماه ويعبئه به حجر جلبابه . . ثم جرى خارجا من العشة إلى عشة أم فردوس وألقى بما جمعه على أرضها . . وأباه ملقى صامتا على الأرض . ووجد المشردين وقد تركوا العشة . . وأباه ملقى صامتا على الأرض . والمرتبتين اللتين كان أبوه ينام عليهما ممزقتين حتى آخرهما وليس فيهما شيء من أموال الكنز . لم يجد شيئا سوى بضعة قروش منشورة في أنحاء العشة وأنحنى على أبيه يتحسسها . . لقد مات .

مات أبوه من الصدمة دون أن يعتدى عليه أحد .

وعرف كل أهل الحي الحكاية واستمروا يتندرون بها . بعضهم حزين ، وبعضهم ساخر ، ولم يفكر منصور ولا أحد من أهل الحي لإبلاغ البوليس ليبحث لهم عن الذين أخذوا أموال كنز الشحاذ ويستردها منهم . بل لم يحاول أحد الإبلاغ عن موت برهوم الاكتع . . لا أحد يبلغ عنه من أبناء هذا الحي سواء من الأحياء أو الأموات . . ووقانا الله شر الحكومة

ودفن برهوم الاكتع بعد أن لف في قطعة قماش مهلهل وبعد أن قرأ عليه الشيخ عاشور بعض الآيات واختاروا لدفنه حفرة ليست مقبرة ولا حتى مقبرة صدقة . . ولم يبك عليه أحد . ولا ابنه منصور الذي ذهب إلى أم فردوس وأخذ يعد ما خرج به من كنز أبيه . . وهي جالسة أمامه تبتسم بأنها فرحة به وبما عاد إليه . . ولكنه مبلغ صغير لا يتجاوز عشرة جنيهات كلها من القروش والملايم . . جمعها وأعطاهم أم فردوس لتحتفظ لها بها

وعاد إلى العشة وقد أصبحت له وحده وهو يفكر فيما سيكون عليه مصيره . مهما كان حال أبيه فقد كان يعتمد على وجوده معه والآن هو وحده فماذا يفعل إنه لا يريد أن يكون شحاذا كآبيه رغم أنه على علم بكل أسرار المهنة إنه يفضل أن يعتمد على مد يده إلى ما يستطيع أن يمدّها إليه أى أن يحترف ويتفرغ للسرقة والفشل . وهو إلى الآن لم يكن لصا محترفا ولا متفرغا كان يعد يده اشباعا لهوائيه وبقدر ما يحتاج إليه من مطالب بسيطة وخصيصة ولكنه يجب أن يغير حياته وفعل بدأ يتوسع في مد يده واستطاع بسرعة ولحظ ذلك أنه يجمع الكثير بل أنه تخصص في سرقة ما في داخل السيارات ، وأصبح قادرا على فتح باب أى سيارة وعرف كثيرون من الذين يشتركون في المهنة وتعلم منهم الكثير وكان بعضهم يكونون من بين أنفسهم شللا أو عصابات تقوم بعمليات جماعية وأحيانا يصلون إلى احتكار حى من الأحياء محرّما على أى عصابة أخرى أن تعمل فيه ولكن متصور كان يفضل دائما أن يعمل وحده وكان من الذكاء بحيث يكسبهم جميعا حتى يتلقى نعمتهم عليه وتعريض نفسه لمعارك معهم

وهو لا يزال يقيم في نفس العشة ويعيش كأن أم فردوس هي أمه وكان الشيخ عاشور هو أبوه ويفيض عليهما مما تصل إليه يداه وفى نفس الوقت لا يزال مصمما على الحصول على الشهادة الابتدائية وعندما وجد نفسه قد أصبح قادرا على دخول الامتحان فوجيء بأن ليس معه أى ورقة رسمية تحدد وجوده ، ويستطيع أن يقدم نفسه بها إلى الامتحان إلى الحكومة ليس له حتى شهادة الميلاد وقد قال له الشيخ عاشور أن لا أحد يبلغ الحكومة عن ابنه الذى يلدّه حتى لا تستولى الحكومة على هذا الابن بعد أن يكبر وتجنده ليكون جنديا في خدمتها ولكنه لن يجنّد لأنه ابن وحيد وأخذ يسعى حتى تقدم إلى مكاتب الحكومة كأنه ساقط قيد وأن الشيخ عاشور ولى أمره ويريد تسجيله

وتم كل شيء ودخل الامتحان .

وتجنّ أصبح يحمل الشهادة الابتدائية ولكن لا يكفى يجب أن يحصل على الثانوية أيضا ويدخل الجامعة لماذا لا أنه كبقية الاولاد حتى لو كان ابن شحاذا بل أنه أصبح بعد الابتدائية متقفا حتى وإن لم يكن من أبناء الطبقة المثقفة ولكنه يجب أن يغير مظهر الحياة التى يعيشها وكان قد غير الكثير من مظهره فعلا إنه يرتدى الآن البنطلون والقميص ولم يعد يظهر بالجلابية وقد أصبح يفضل المنطلونات الجينز بل أنه يخرج من العمليات التى يمد فيها يده بأرباح تكفى لأن يشتري بدلة كاملة ومغطا وقد قرر أخيرا أن يترك العشة التى يقيم فيها وينتقل إلى بيت له جدران وقد استطاع أن يجد غرفتين في أحد أحواش المدافن الواسعة القديمة يؤجرهما التبرى المسئول عن هذا المدفن بعد أن تشتت أصحابه ولم يعد منهم من يحاسبه ولا من يتردد على المدفن لزيارة المقابر وقرر أن يأخذ معه أم فردوس والشيخ عاشور ليقبلا معه إنهما أمه وأبوه

وقالت له أم فردوس وهي فرحة :

- ولكن كيف تعيش معك ابنتى فردوس ماذا يقول الناس إلا إذا عقدت عليها وأصبحت زوجتك

وقال ضاحكا :

- لا تتعجلى يا أمى أنى لم اصل بعد إلى الخامسة عشرة من عمرى فكيف أتزوج

وقالت أم فردوس جادة :

- الرجل يتزوج عندما يستطيع أن يكسب وانت تكسب ودوسة استنى في الحادية عشرة من عمرها ولكنها مادامت قد استكملت بلوغها فيجب أن تتزوج

وقال منصور مستمرا في ضحكته :

- على بركة الله . .

وتزوج منصور من دوسة دون أن يطرأ على باله أن يسأل نفسه إذا ما كان الرجال الذين تعودوا أن يزلوا إلى الحفرة ليضاجعوا أمها قد ضاجعوا هي الأخرى أم لا . . إن كل ما في حياته كان طبيعيا لا يثير أى تساؤل .

وانتقلوا ليعيشوا بين الجدران في حوش المدفن . . وكانت حياة أوسع وأرقى من حياة العشش . . ولكن ما لبثت أم فردوس أن ضاقت فهي لا تستطيع أن تعيش بين جدران . . ولا تستطيع أن تتحمل الحرمان مما تعودت أن تعيشه . . وصممت أن تعود إلى حياة الحفرة في الصحراء . . وصرخ منصور :

- كيف تخرج زوجتى دوسة لتزورك في عشك وقد تعودت أن تعيش في

بيت

وقالت أم فردوس تطمئنه

- لن تزورنى دوسة . . أنا التى أزورها . . لا أريد أن أرها في الحفرة . . والشيخ عاشور أيضا أصبح يضيق بحياته . . إنه أصبح يطوف بالمقابر فلا يدعوه أحد ليقرا . . الناس أصبحت تعتبره كأنه أصبح غنيا وجارا لهم . . والله لا يريد أن يقرأ على المقابر قراء اغنياء يجب أن يكونوا من الفقراء حتى يكونوا أقرب الى الله .

وصاح منصور في وجهه :

- إنك لم تعد في حاجة إلى التعب أمام المقابر . . وأنا كفى بذلك .

وقال الشيخ عاشور

- ليس المهم أن أتكسب . . المهم أن أقرأ تقريبا لله .

وتركه الشيخ عاشور أيضا وعاد إلى العشة التى كان يعيش فيها . . إلى الحياة هى ما تعود عليه . . وقد تعود الشيخ عاشور على الحياة في عشة ملقاة بين الرمال . . ربما لو كان أبوه حيا لعجز أيضا عن نقله من العشة أو حرمانه من الشحاذة كما تعود أن يعيش حياته . .

وعاش وحده هو وزوجته دوسة في البيت الصغير داخل المدفن . . إنه لا يحس بدوسة كشخص أحر فقد عاشت معه كل حياته منذ ولد وولدت بعده . . كأنها ولدت لتكملة . . انهما شخص واحد . . وهو يزداد في عمليات مد اليد . . ودائما يكسب . . ودائما في أمان . . ولا يزال مصرا على الحصول على شهادة الثانوية . . ويقضى كل فراغه في مذاكرة الكتب التى اشترى بعضها واستطاع أن يحصل على البعض الآخر بعد يده الذكية . . وهو يحلم بأن يصل يوما إلى الجامعة . . ويتخرج . . ويستطيع أن يصل إلى كل ما يريد . . ربما استطاع أن يكون وزيرا . . ولكنى يكون وزيرا يجب أن يبدأ منذ اليوم في أن يعيش السياسة . . وهو منذ قرآن يحصل على شهادة الثانوية دون أن يلتحق بمدرسة وهو يتردد على مدرس خاص يعلمه . . إنه مدرس غال يأخذ منه جنيناه في الدرس الواحد أتعابا له . . وقد قال له المدرس إنه عضو في الحزب السياسى ويحدثه كثيرا في السياسة . . لماذا لا ينضم إلى هذا الحزب حتى يكبر فيه ويصبح معروفا به فيحارونه ليكون وزيرا . .

من يدري . .



سأتم وهو صبح ..

مصنع كامل يتحرك كاللورى والشاحنة اللتين يقودهما الاسطى عطية
من خسارة الساعات الزمنية لاتقاس بحانب خسارة الروح ، أو خسارة
كيان السيارة فى حادث تصادم ، أو فى حادث مصادفة عثرة قد تقلب
السيارة وتقضى عليها ..

وربما تكونت هذه الشخصية الهادئة الصبورة للاسطى عطية نتيجة
انه لا يحس وهو يقود السيارة بأنه يؤدى عملا مفروضا عليه حتى يكسب
ورقه . ومضطر اليه مهما عرضة للإرهاق والمتاعب والمشاكل . انما يحس
وهو يقود السيارة كأنه يعيش حياته الطبيعية . ويحس وهو جالس أمام
عجلة القيادة نفس احساسه وهو جالس أمام زوجته وأولاده .. هذه هى
الحياة . وقد بدأ حياته بالسعى إلى عجلة القيادة قبل ان يسعى إلى الزواج
وانجاب الأولاد . بل إنه يعتبر أن الحياة العائلية التى أقامها ليست سوى
استكمال لحياته مع « الدريكسيون » .. أى مع عجلة القيادة .. وقد بدأ
حياته صبيًا يعمل فى جاراجات الشركة . ومنذ رأى عجلة القيادة من
بعد ، وهو يحس انها حياته . يريد أن يعيش معها وبها .. وقد استطاع
أن يسعى إلى أن أصبح قائد سيارة من سيارات النقل اللورى التى يعيش
بينها .. وعاش كل أيامه وعجلة قيادة اللورى فى احضانها .. ووصل
ارتباطه بالسيارة التى يقودها إلى حد أنه كان يثير ضجة إذا حاولت الشركة
أن تعهد إلى سائق آخر بقيادتها . كأنها زوجته وليس من حق رجل آخر أن
يتولاها .. وقد راعت الشركة فعلا أن تكون هناك سيارة مخصصة لقيادة
الاسطى عطية مراعاة لرضائه لما عرف عنه من مكانة بين قادة السيارات ..
وصحيح أن هذه السيارة قد تغيرت نتيجة التطور فى اختراعات معدات
سيارات النقل ، ولكن يبقى إحساسه - دائما - واحدا بكل سيارة يتولى
قيادتها .. احساسه بأنها حياته .. كأنها زوجته .. رغم أن زوجته
لا تتغير ولا يدخلها أى تطور ..

إلى هذا الحد كان الاسطى عطية مرتبطا بالسيارة اللورى التى يتولى
قيادتها .

كانت الساعة قد وصلت إلى ما بعد العاشرة مساء عندما جلس
الاسطى عطية على مقعد قيادة السيارة اللورى الضخمة التى تجر وراءها
شاحنة كبيرة .. وأدار الموتور وهو يقرأ الفاتحة بينه وبين نفسه وتحرك
باللورى فى طريقه عائدا إلى القاهرة

كان قد ترك القاهرة فى الساعة السابعة من صباح نفس اليوم وهو
يقود اللورى ويجر وراءه الشاحنة محملين بأجولة ضخمة من منتجات
الشركة ليسلمها فى ميناء الاسكندرية . والمرفهون من قادة السيارات
الصغيرة الخاصة أو الاجرة يقطعون الطريق الصحراوى بين القاهرة
والاسكندرية فى ساعتين ونصف . وقد يتحدون الزمن ويقطعون المسافة فى
ساعتين .. واتوبيسات الركاب قد تقطع نفس المسافة فى ثلاث ساعات
ونصف .. أو أربع . اما هو فيقطع هذه المسافة وهو يقود هذا اللورى
الضخم ويجر وراءه هذه الشاحنة الثقيلة فى ست ساعات وأحيانا فى
سبع . ومعروف عنه كسائق انه وافر الهدوء وقادر على الصبر الطويل
ولانتنابه شهوة الاسراع بالسيارة التى يقودها أو تخطى سيارة تسبقه ..
وكل ما يهمه هو أن يصل بسلامة الله دون أن يهجم حساب الساعات التى
مرت به حتى وصل . ومادام قد وصل ، فلا يهم إن كانت قد زادت ساعة
أو نقصت ساعة عن الموعد المقرر رسميا لوصوله . وقائد السيارة يجب ألا
ينظر فى الساعة الزمنية الموضوعه امامه وهو يقود . بل يجب أن يركز كل
عينيّه على ما امامه وما يحيط به حتى يتقن الأحداث ويوفر السلامة ..
خصوصا إذا كان يقود سيارة فى ضخامة وثقل عمارة ، أو كأنها - وحدها -

وفي هذا اليوم الذى كلف فيه الاسطى عطية بقيادة اللورى من القاهرة إلى الاسكندرية . أبلغته الشركة بأن اللورى يجب أن يعود إلى القاهرة في نفس اليوم محملا بالآلات مستوردة . وأنها ترى أن تكلف سائقا آخر ينتظره في الاسكندرية ويعود به . وكانت الشركة تقصد أن الاسطى عطية سيكون متعبا بعد الوصول إلى الاسكندرية . . . وهى تريد أن تريحه وتطمئن أكثر إلى عملية نقل بضائعها . . . ولكن الاسطى عطية كثر عن أنياب الثورة والغضب . . . كيف تعهد الشركة بسيارته إلى سائق آخر . . . ثم كيف تفترض أنه لن يستطيع قيادة هذه السيارة الضخمة ذهابا وإيابا بين القاهرة والاسكندرية . لقد سبق أن قاد السيارة في رحلات طويلة استغرقت أكثر من عشرين ساعة دون توقف . فكيف تنسى . . . ثم أنه لو تولى القيادة ذهابا وإيابا فإن المكافأة التى يحصل عليها بالإضافة إلى مرتبه قد تصل إلى مائة جنيه . . . وهو لا يمكن أن يضحى بمائة جنيه حتى يفرغ تعب ليلة . . .

واضطر موظفو الشركة أن يستجيبوا للاسطى عطية ويتركوه يعود بالسيارة إلى القاهرة . . . انهم لا يتجاهلون قدراته وقوة احتماله كسائق . . . ولا ينسوا أفضاله . . .

ووصل الاسطى عطية بالسيارة إلى ميناء الإسكندرية في الساعة الثالثة بعد الظهر . أى تولى قيادتها لمدة ثماني ساعات لم يتوقف خلالها إلا نصف ساعة قضاها في كشك مدبولى المقام على رمال الصحراء عند منتصف الطريق . وتتأول كوبا من الشاي الأسود وشد نفسا من الجوزة دون أن يتبادل حديثا مع سائقين من اصدقائه وجدهما هناك مكتفيا بالقاء التحية ثم التفرغ للشاي والجوزة . . . أنه وهو يؤدي مهمته لا يعرض نفسه لما يشغله عن التركيز عليها حتى لو كان مجرد حديث مع اصدقاء .

وبعد أن وصل إلى الميناء ترك عجلة القيادة وبزل من السيارة ليقف مع العمال وهم يفرغونها من حمولتها . . . وهو ليس مسئولاً عن تفريغ اللورى . ولكنه يصمم على أن يثبت وجوده في كل ما يتصل بالسيارة . . .

وبعد أن مرت ساعات وانتهى انزال الحمولة . قاد السيارة إلى مكان آخر حيث بدأ تحميلها بالآلات المستوردة . ثم ترك عجلة القيادة ووقف أيضا مع العمال والمشرقيين عليهم يتدخل بنفسه في كل حركة وفى كل تصرف

وبعد ساعات بدأ يحس بالانهاك . . . واستند على باب السيارة وهو يقول لنفسه من خلال انتسامة تتهاك على شفثيه

- من حقا أن تحس بالتعب يا عطية . . . شد حيلك .

لقد خرج من بيته في القاهرة في الساعة الرابعة صباحا . والساعة الآن في الاسكندرية تعدت الثامنة مساء . أى مضى عليه أكثر من ست عشرة ساعة وهو يعمل ويتحرك . ومن الطبيعى بعد ذلك أن يحس بالتعب يسرى في جميع عضلات جسمه . . . والانهاك يضعف أنفاسه . كأنه في معركة ليس من حق المقاتل فيها أن يستريح أو يلتقط أنفاسه . . . وإن كان لا يدري ما هى المعركة التى يخوضها ، ولماذا ليس من حقه أن يستريح . ولكنها طبيعته التى ترسم شخصيته وهو يفعل . . .

وفتح باب السيارة اللورى في سخط وألقى نفسه عمدا على مقعد القيادة وقد قرر أن ينام ولو ساعة واحدة . . . وقد تعود في مثل هذه الحالات أن ينام داخل السيارة . . . ولكنه في الواقع لا ينام أبدا . . . إنه يحس أنه نائم يقظان . أو يقظان نائم . . . أنه لا ينام نوما كاملا مشعبا إلا على فراشه في بيته . . . وكل ما يحس به وهو نائم داخل السيارة هو نوع من الاسترخاء المريح . . .

واسترخى . . . نائم يقظان ، أو يقظان نائم . . .

وفجأة قفز من رقدته منطلقا إلى خارج السيارة . كأنه عوف وهو نام إلى كم وصلت الساعة أنها التاسعة . . . وبدأ يطوف حول السيارة راجع ماتم في عملية الشحن . لقد قاربت على النهاية ولم يبق إلا القليل

حتى يبدأ القيادة في المشوار الطويل . . وتحرك كأنه يستكمل معداته . .
فحمل وعاء الماء أي « الترمس » الكبير وذهب به إلى المقهى المجاور وملاه
بالشاي الأسود الداكن . أنه أقوى ما يصونك من النوم ويحتفظ لك
بيقظتك ثم أخرج علبة السجائر التي يحتفظ بها في جيبه . وألمن . .
أنها لا تزال تحمل خمس سجائر . سجائر خاصة محشورة بمسحوق
الحشيش . . وتكفي للمشوار الطويل .

وكانت الساعة قد تعدت العاشرة عندما جلس على مقعده واحتضن
عجلة القيادة . . وتلى الفاتحة ثم تحرك باللورى الضخم ويجر وراءه الباقلة
الثقيلة . . وظل وهو لا يزال داخل مدينة الاسكندرية يردد الآيات
القرآنية . . وقد حفظ كثيرا منها خلال عمره . . وكان يختار منها الآيات
التي تحمل دعوة الله إلى أن يصونه ويرحمه ويهديه . . وكانت من الآيات
التي تعود أن يبدأ بها . . « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » لها ما كسبت
وعليها ما اكتسبت . . ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . . ربنا
ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا . ثم يعقبها بترديد
آيات كثيرة من الاستعانة برحمة الله والاتجاء إليه والاتكال عليه .

وكان قد خرج بالعمارة الضخمة التي يقودها من مدينة
الاسكندرية وبدأ الطريق الطويل نحو القاهرة ومد يده والنقط عليه
السجائر وفتحها وعلق سجارة في فمه وأشعلها . لقد فعل كل ذلك بيد
واحدة وهو قابض على عجلة القيادة بيده الأخرى . لقد تعود أن يقوم بكل
شئونه دون أن يتوقف بالسيارة . . ويشد أنفاس الحشيش بكل ما في أنفاسه
من طاقة . . كأنه يلتقط أنفاسا من الفيتامينات التي تدوده بكل القوة التي
يحتاج إليها . أن الناس الجهلة لا يعرفون مدى هذه القوة التي يمكن أن
يعدم بها تدخين الحشيش . إنها قوة تفرض على العقل البشرى التركيز
على موضوع واحد فقط طالما هو تحت سيطرة الحشيش . . فإذا بدأ

الحشاش يدخن وهو يفكر مثلا في موضوع مشاكله مع زوجته وأولاده
يظل كل عقله وكل احساسه وكل خواطره معلقة بهذا الموضوع طوال الفترة

التي يقضيها مسطولا . . كأنه أصبح استادا متفردا لدراسة تخصص
فيها . . وهو الآن في حاجة إلى أن يركز كل عقله واحساسه على موضوع
واحد . . وهو موضوع القيادة . . لا يمكن أن يشتت عقله إلى موضوع
آخر . . حتى أن كل خواطره محصورة في القيادة . أنه لا يتحدث مع
نفسه ولكنه يتحدث مع عجلة القيادة . ويحس بها كأنها هي الأخرى كأن
حي يشترك معه في الحياة . . ولأنك أن الحشيش يساعده على استكمال
قوة هذا التركيز . .

وانتهى من تدخين السجارة ثم مد يده وفتح « الترمس » وصب
لنفسه كوبا من الشاي الأسود . . كل ذلك بيد واحدة تترك اليد الأخرى
متفرغة للقيادة . . إن الشاي الأسود كالطعام الدسم . . يستنزف كل ما في
المادة المزروعة من أسرار إلهية ليصحبها في بطن الشارب . . والسر الذي
وضعه الله في أوراق الشاي هو قدرتها على تنبيه أعصاب الإنسان والاحتفاظ
بها صاحبة نشيطة مستكملة كل وعيها . وهو في حاجة إلى هذه القوة
قوة احتمال أعصابه وهو يقود هذه العمارة العالية التي تسير في شكل
سيارة لورى . . خصوصا وهو يقودها في الليل المظلم . . وهناك من الناس
الجهلة من يعتقد أن القيادة في الليل أسهل وأرحم وأكثر أمانا من القيادة في
النهار . لأن الطريق يكون في الليل أخف في زحامه وفي المعوقات التي
تعرضه . وهناك من السائقين الشباب من يطلق السيارة وهو يقودها في
الليل إلى منتهى سرعتها باعتبار أن الطريق خال . . أمان . . وهم مغفلون
أغبياء . . فالقيادة بالليل أكثر تعرضا للمفاجآت من القيادة بالنهار . . لأن
مدى الرؤية يكون أقصر خصوصا في الطرق التي لا تكون مضاة . . ويجب
أن تكون السرعة في الليل أقل منها في النهار . . وتركيز الانتباه أقوى . . إلى
أن يخرج الله بالسيارة وقائدها من الظلمات إلى النور .

وكان قد قطع أكثر من ربع المسافة من الطريق الطويل عندما بدأ
يشعر بجفنيه يزدادان ثقلا فوق عيناه . إنه يحس بأنه على وشك أن
يموت . . وأبتسم في داخل نفسه مطمئنا . . لقد سبق أن سقط جفنيه فوق

عينيه مرات وغفا اثناء القيادة . . إن الله سبحانه وتعالى يخلق الإنسان ويرعاه مادام من الطاهرين المؤمنين . . والاسطى عطية يعتبر نفسه طاهرا مؤمنا ، ويعيش كل وجوده في رعاية الله . . ولاشك أن الله يعلم مدى ما يبذله من جهد في عمله للتظليل الطاهر . . ويعلم أيضا مدى قوة احتمال تكوين هذا الإنسان لهذا الجهد . . لذلك فإذا زاد جهده عن قوة احتماله زوده الله بما يرعاه حتى ينتشله من الغناء . . أى أنه إذا أغفى وهو يقود السيارة رعاه الله من أن يقع في حادث أو يضيع في نكبة . . كان الله هو ذاته يتولى قيادة السيارة ويتركه مغمض العينين حتى يريحهما . . بل إن الاسطى عطية يعتبر أن الله سبحانه وتعالى وضع في عقل الانسان أجهزة الكترونية تتولى عنه وظائف الاعضاء التي خلقه بها إذا عجزت عن أداء مهمتها . . أى تقوم هذه الأجهزة بقيادة السيارة إذا نام قائدها

وقد مرَّ الله على الإنسان بالوصول إلى بعض اسرار هذه الأجهزة الالكترونية . . واستطاع الإنسان بهذه الاسرار أن يخترع آلات يضعها فوق الارض ويستطيع بها أن يطلق طائرة تطير في السماء ويحركها كما يشاء دون أن يجلس فيها قائد يصعد معها إلى السماء ويتولى قيادتها . . إن الطائرات التي تطير بلا قائد كالصواريخ التي لا يتولى الانسان قيادتها المباشرة وتقودها أجهزة الكترونية أصبحت منتشرة في العالم . . وأن كانت للأسف لا تزال مخصصة لتسليطها كأسلحة حروب . .

وأكثر من ذلك . . ماهو التلفزيون ؟ . . إنه جهاز الكترونى يلتقط خطوط الصور الهائلة في الفضاء الواسع ثم يجسمها وينقلها إلى شاشة تراها بعينيك . . أى أن واقع ما تراه على شاشة التلفزيون لا تراه مباشرة بعينيك بل تراه منقولا اليك بعين أخرى . . عين الكترونية . .

والإنسان لا يمكن أن يصل إلى علم الا من داخل علم الله . . والاكتشاف والاختراع ماهو الا بعض ما يسمح به للانسان بالوصول اليه من داخل الوجود الذى خلقه وأقامه سبحانه وتعالى . . فالإنسان لم يصل

إلى الأجهزة الالكترونية من العدم بل وصل اليها من خلال قدرة الله . . وربما كان الله قد وضع في كل شيء جهازا الكترونيا . . وقد ينأم الانسان امام التلفزيون دون أن يتتبعه بعينه بل يكون قد اغمض عينيه عنه ، ولكنه يقوم من النوم ويفاجأ بأنه يروى القصة التي كان يعرضها التلفزيون كأن في داخل رأسه جهازا الكترونيا كان يلتقط ما يعرض أمامه دون أن يراه بعينه . . وكذلك قد يغفو سائق السيارة وهو يقودها . . فيترك الجهاز الالكترونى داخل عقله يتسلط على الاعصاب المؤدية إلى يديه اللتين تمسكان بعجلة القيادة ويحركهما بحيث تستمر السيارة في طريقها وفي امان .

وسقط جفنا الاسطى عطية فوق عينيه فعلا وهو ممسك بعجلة القيادة . . وأغفى . . ولكنه لم ينم نوما كاملا . . انه نائم يقظ . . أو يقظ نائم . . ويحس بكل شيء دون أن يرى أى شيء . . كأنه مستسلم للمركز الالكترونى الذى يتحرك في وعيه الداخلى . .

وفجأة . . احس الاسطى عطية - وجفناه لا يزالان منسدلين فوق عينيه - بقدمه ترتفع عن مداس البنزين ثم تسقط بعنف وبكل قوتها فوق مداس الفرملة . . ووقفت السيارة للورى الضخمة وهى ترتج . .

وكان الاسطى عطية قد رفع جفنيه عن عينيه ووجد السيارة قد حادت عن جانب الطريق وأصبحت في منتصفه في مواجهة سيارة لورى أخرى أتية من الفاحية المواجهة من الطريق . . أى في طريقها إلى الاسكندرية . وكانت السيارتان على وشك تصادم احدهما بالآخرى . . لولا أن الفومال حالت دون الصدمة وأوقفتها ملتصقتان تلامس واجهة احدهما الأخرى . . لقد كان السائق الآخر أيضا قد تمكن من ضغط فرامله قبل أن يقع للتصادم . .

ونزل الاسطى عطية من السيارة وهو يحمد الله وقال ضاحكا للسائق الآخر .

- هل أغضبت عينيك أنت الآخر ؟

وقال السائق الآخر ضاحكا هو الآخر :

- عيائى لاتطيع أوامرى .

وقال الاسطى عطية وهو يمد ذراعه داخل السيارة ويلتقط وعاء الشاى :

- الحمد لله .. خذ منى شغطة شاى حتى تقدر على فتح عينيك ..

وقال الآخر وهو يأخذ من عطية كوب الشاى :

- ألف حمد وشكر لله .. خذ هذه السيجارة حتى تربطك بالدركسيون .. وتصبرك على القيادة ..

وتبادلا كوب الشاى الاسود وسيجارة الحشيش .. وكأن كل منهما يحادث نفسه .. ثم صعد كلاهما إلى مقعد قيادته وتحركا في هدوء كأن شيئا لم يحدث ..

والى سلامة الله ..



نوم آخر من الجنون ..

كانت امها جميلة .. منتهى الجمال .. وليس جمالها جمال زاقق .. ولكنه جمال هادى .. طيب .. كأنه نسمة ربيع ينعنى كل إنسان أن تهف عليه ويعيش فيها ..

ولكن امها كانت أيضا مجنونة .. انهم كلهم وكل من حولهم يعرف انها مجنونة .. ولكنه أيضا جنون هادى .. كأنه يختبئ من داخلها ولا يظهر عليها .. واقوى مظاهر هذا الجنون انها كانت دائما منعزلة بنفسها .. صامته .. قد تمر عليها أياما دون أن تنطق بكلمة .. وتعيش كأنها لاتتقرب احداً محاولها ولاشيئا ممايحيط أويلم بها .. كأنها تعيش في عالم آخر ترسمه لنفسها ولايعيش معها فيه أحد .. حتى اولادها منذ ولدتهم كانت تبدو كأنها لا تعرف انها امهم .. ما هي الام .. حتى انها كانت لا ترضعهم إلا إذا حمل أبوهم الواحد منهم ووضعها على صدرها .. وأخرج صدرها ووضع حلمته بين شفتى الوليد .. وهى مستسلمة في سعادة كأنها في كل مرة ترضع فيها تكتشف شيئا جديدا يسعددها .. ولاتلتفت أن تنساها .. إلى أن يحمل لها الأب الطفل مرة أخرى .. وخلال هذا الهدوء كانت تنتابها فترات شاذة عجيبة .. لقد دخلت المطبخ يوما وكانت أم رتيبة المشرفة على خدمة البيت غائبة عنه يعد أن انتهت من إعداد اطعمة وجبة الغداء .. فحملت الام كل الاوانى التى تحمل هذا الطعام وسكبتها في صفيحة الزبالة ثم وقفت في هدوء أمام الحوض تغسل الاوانى كأنها ست بيت ممتازة .. وفى يوم جمعت كل ثياب أبنائها وانزوت بها في عرفتها وأخذت تقلب فيها .. وربما خيل اليها انها كلها اثواب في حاجة إلى إصلاح وتعديل .. ولكنها بدلا من أن تمسك بخيط وبرة لإصلاحها

امسكت بالقمص وأخذت تقص فيها ثوبا بعد ثوب . ثم قامت وأعادتها
قطعا ممزقة إلى مكانها .

وكان أبوها هو اقرب افراد العائلة تحملا لجنون زوجته . ولكنه كان
يحبها إلى حد انكار هذا الجنون . إنها شاذة ولكنها ليست مجنونة . وقد
بلغ من حبه لها وعدم سلواه لمعاشرتها إنه انجب منها سبعة . أربعة أولاد
وثلاث بنات . وقد أطلق عليهم كلهم أسماء تبدأ بحرف الميم .
مصطفى . مرتضى . محمد . منصور . عاجدة . منيرة .
ميرفت . لمجرد أن اسم امهم يبدأ بنفس الحرف . مفيدة . إلى هذا
الحد كان يحبها . يحب هذه المجنونة . ربما لأن جمالها يشبع متعته
وهي مستسلمة له بين ذراعيه . دون أن يؤثر هذا الجنون على هذه
المتعة . فهي بين ذراعيه مستسلمة له لا تحس بأنها تعطيه أو تأخذ
منه . ولكنها تحس في كل مرة أنها تتفرج على شيء جديد يحدث لها . وهو
ما يثير متعته أكثر ويقلب متاعبه التي يلحقها به جنونها .

وكان كل افراد العائلة الكبار يلحون على الاب أن يعرض زوجته على
طبيب أمراض عقلية . طبيب مجانين . ولكنه كان يرفض دائما . فهي
لا تحس بأنها مجنونة وعرضها على طبيب أو إلحاقها بمستشفى سيكشف
لها أنها مجبونة أو على الأقل متهمة بالجنون . وهذا يجعلها تجن أكثر .
وتتعمد أن تغالي في تصرفاتها الشاذة كأنها تعطي لنفسها حق المجانين .
أي لا تكنفي بشذوذها الذي لا تتعمده بل تفتعل تصرفات أبعد شذوذا
مادامت قد أصبحت تعرف أنها مجنونة . وهذه نظرية معروفة في العلاج
النفسى . فيجب ألا يعالج المريض على يد طبيب مختص . أو أن يتخفى
الطبيب المختص في شخصية أخرى وهو يعالجه حتى يخفى عنه ولا يواجهه
بأنه مريض . ثم إن العائلة تعودت على احتمال هذا الجنون . وهو نفسه
يتحمل أضعاف ما يتحملة أى فرد منهم . فلا داعى لعرضها على
طبيب . ومن يدري لعل الله يشفيها من شذوذها . ولا يدري أحد بعد
كيف ستكون ؟ لعلهم يندمون على أيام الشذوذ .

وكانت المفاجأة قاسية . . لقد خرجت الأم مفيدة من عزلتها داخل
عرفتها وهي تبتسم ابتسامة واسعة . كأنها ترسل بها قبلة لكل ابن من
ابنائها . ثم وقفت في الشرفة المطلة من الدور العاشر . وشبت على قدمها
وابتسامتها لاتزال بين شفيتها وألفت بنفسها . .
وماتت . .

ولعل كل ما كان يدور بعقل أمها ساعة ألفت بنفسها إلى الموت هو
محاولة الفرجة على العالم الآخر الذي سمعت عنه . .

ولاشك أن أباهما كان صادقا في حزنه على ضياع زوجته . . لقد كان
يحبها رغم كل ما فيها . ولكن حزنه لم يؤثر في طبيعته كرجل إدارى
مالسبة لبيته وعائلته . . وحسن الإدارة يفرض عليه أن يجد زوجة أخرى
تساعده في إدارة البيت والإشراف على ابنائه السبعة . . ولم يمض سوى
أربعة شهور على انتحار زوجته الأولى حتى كان قد تزوج الثانية . وكان
ذكيا في اختيارها فهي امرأة لا تنجب . وكانت زوجة سبق أن طلقت لعدم
إجابها . . وهذا يوفر عليه متاعب التوفيق بين أولاد الزوجة الأولى وأولاد
الزوجة الثانية . . ويوفر عليه مشاكل تعلق الأم بابنائها . . ووضعهم فوق
أبناء ضررتها . . حتى لو كانت الضرة قد ماتت . . وفعلا دخلت الزوجة
الجديدة بيتهم وهي تحب الأولاد والبنات وتفيض عليهم بمنتهى الحنان
كأنها أخيرا وجدت لنفسها أبناء . . وخصوصا حبها لها . لميرفت . فهي
أصغر البنات . . وقد أخذتها بعد وفاة أمها وهي لاتزال في العام الأول من
عمرها . . وتولت هي أمدادها بكل مطالب الحياة . . وأصبحت تحس بها
ابها ابنتها فعلا . . بل كانت تميزها عن أختها فيعما تضيفه عليها من رعاية
واهتمام . .

وسارت العائلة في حياة جديدة وخصوصا بعد أن تخلصت من جنون
الأم التي ماتت . . ولكنها أيضا حياة غريبة . وكان الأب هو دائما القائد
الأعلى للعائلة . يتحمل مسئولية كل دقيقة تمر بها . فهو الذى يطعمها

ويشتري بنفسه لوازم الطعام . . ويشرف على تنظيف البيت وإعدادة .
ولا يتحرك أى فرد من أفرادها إلا بأمره . . وكان الأولاد السبعة كلهم
صامتين حتى بينهم وبين بعض . . ولا شيء يجمعهم . . كل منهم له طبيعة
وشخصية قائمة بذاتها . . وكل منهم يختار حياة خاصة لا علاقة لها بحياة
الآخر . . حتى كان من المستحيل أن تجمعهم في تقاليد عائلية واحدة . .
حتى في المظاهر العادية . . فمصطفى مثلاً يواظب على تناول الطعام مع
والده . . الإفطار والغداء والعشاء . . ومرضى يتناول الإفطار ولا يتناول
الغداء منتظرا العشاء . . ومحمد يكتفى بالإفطار وحده ولا يأكل بعده مهما
تجالت عليه زوجة أبيه . . وماجدة تعتبر تناول الطعام كأنه تلطيف
لأمعائها ، ولا تأكل إلا وأبويها أو زوجته يحضر لها الطعام في قمرها
حشرا . . و . . وكانت المشادات تقوم أحيانا داخل العائلة ولكنها
كانت دائما مشادات مع الأب . . لا تشترك فيها الزوجة . . إنها زوجة
مستسلمة كل الإستسلام لزوجها ولأولاده مهما كانت غريبة ما تستسلم
له . . وكان الأب على قدر ما يشك من متاعب العائلة يشيد ويتفاخر بابنته
الصغرى . . ميرفت . . إنها الوحيدة التي رزقه الله بها لتعوضه عن كل
ما يلقاه . . إنها جميلة كأماها . . منتهى الجمال . . ولكنها أيضا عاقلة .
منتهى العقل . . لقد ورثت عن أمها الجمال . . وورثت عنه العقل
والجدية . . أنها الوحيدة بين أولاده التي يحبها . . منتهى الحب . .
ويرتاح إليها . . منتهى الراحة . . وقد كانت ميرفت هي الوحيدة التي تجمع
العائلة كلها . . وتنقل بينهم واحدا واحدا وتبادل حكاية . . أى حكاية . .

والأيام تمر . . وكانت اختها الكبيرة ماحدة قد بلغت الرابعة عشرة
عندما بدأوا يلاحظون عليها تطورها . . لقد بدأت تنعزل عنهم جميعا . .
ولا تتبادل معهم ولو كلمة . . وتقوم من النوم كل صباح دون أن تعد نفسها
للذهاب إلى المدرسة . . لا لأنها ترفض . . ولكن كأنها لا تذكر أنها يجب أن
تذهب إلى المدرسة . . إلى أن يأتي أبوها ويصرح فيها ويشدها من فوق
السريير ويكلف زوجته بأن تدخلها الحمام وتلبسها ثيابها ويدفعها إلى أن

نصم إلى أختها ويذهب بهن إلى المدرسة . . إلى أن تطورت ماجدة أكثر
وأصبحت تقضى كل وقتها وهي حالسة تحت السريير . . كأنها تختبئ منهم
ولا تريد أن ترى واحدا منهم . . أو لعلها تتصور أنها تلعب معهم لعبة
استغماية . . ولكنها بدأت بعد فترة تقوم من جانب أختها وهن نائمات على
سريير واحد . . وتلقى نفسها وتنام تحت السريير .

ومرت فترة طويلة والعائلة متحملة شذوذ ماجدة . . ووالدها يتهمها
بأنها كسولة جاهلة لا تريد أن تكبر وتعيش كالبنيات الناضجات وتكره
الذهاب إلى المدرسة كما يكرهها كثير من الصغار . . بل إنه قرر أن يحرمها
من المدرسة حتى يريح نفسه من متاعبها . . وتركها في البيت لا تخرج منه
لأنها هي نفسها لا تريد أن تخرج . . ويعتبر أنها تلعب بإصرارها على
الجلوس تحت السريير . . ولكن زوجته كانت تنظر إلى ماجدة كأنها تشاهد
مأساة . . ولكنها لا تتكلم ولا تحاول أن تفسر حالتها . . كان ليس من حقها
أن تتدخل في هذه الحالة . . إنما هو حق زوجها وحده . . أما ميرفت فقد
كانت الوحيدة التي تبذل أكثر في مراعاة أختها ماجدة . . وتجلس معها
طويلا تحادثها . . وماجدة تتحدث في بساطة كأنها فتاة عادية وتجب على
كل سؤال إجابة طبيعية حتى لو كانت غريبة . . وقد قالت أنها تجلس تحت
السريير لأنه المكان الذي تحس فيه بالهدوء . . وتبتعد فيه عن دوشة البيت
والعائلة . .

إلى أن لاحظت ميرفت أن أختها بدأت تبكي كثيرا وهي منعزلة
وحدها . . واستطاعت بلباقتها أن تصل إلى سر هذا البكاء . . أن أختها
سحب ابن الجيران . . ولكن أين رأت ابن الجيران . . لعلها شاهدته مرة من
النافذة . . هل مجرد المشاهدة من بعيد تكفى للحب . . ثم أنه يكرهها
كثيرا . . فماذا أحببت فيه ؟ أو لعلها لم تره أبدا حتى ولا من النافذة .
فهي لم تشاهد أختها أبدا تطل من النافذة . . وبالعكس أن من عادت بها أن
تنقى النافذة مغلقة حتى لو تشادت مع أختها . . لعلها تخيلت قصب حب
تعيش فيها . . واختارت أن يكون بطلها هو ابن الجيران لأنه البطل العادي

في معظم قصص الحب . . ولكنها كانت تعيش خيالها كأنه واقع إلى حد أن تبكى دائما كأنها فتاة محرومة من حبيبها فعلا . . بل إنها بدأت تجلس وتكتب خطابات طويلة . . خطابات حب . . ولكنها لا تحاول أن تكتشف وسيلة لتصل خطاباتنا إلى حبيبها . . ولكنها ما تكاد تنتهي من كتابة خطاب حتى تضعه في ظرف لا تكتب اسما عليه ثم تلقيه من النافذة . . إن كل ما تتصور أنه يجمع بينها وبين حبيبها هي النافذة . . ولعلها تتصور أنها لو مدت يدها من النافذة فستمسك بيد حبيبها . . ولكنها لم تحاول أبدا أن تمد يدها من النافذة .

إنها مجنونة . . لاشك إنها مجنونة . . وأعلن الأب جنونتها وصاح :
- لقد ورثت الجنون عن أمها . .

ولم يكتف الأب بأن يتحمل جنون إبنته كما تحمل جنون أمها . . ربما لأنه لا يخرج بشيء من هذا التحمل . . ليس له مصلحة خاصة في تحملها . . إنه لا يأخذها في أحضانها كل مساء كما كان يأخذ أمها . . وبدأ يطوف بها على أطباء الأمراض العقلية ، وإنتهى إلى وضعها في مستشفى المجانين بالعباسية . .

وميرفت تلاحقها وتظن في أذنها كلمة أبيها عن أختها . . لقد ورثت الجنون عن أمها . . هل الجنون يورث . . إن كل العائلة تقول أنها أقرب الأبناء إلى أمها . . ورثت عنها كل جمالها وكل ملامحها . . فهل سترث عنها الجنون أيضا ؟

ولكن لماذا تخاف الجنون . . إن كل أختها ليس بينهم مجانيين إلا أختها ماجدة . . وأختها منيرة عاقلة هادئة . . وقد تزوجت وإن كانت تعيش مع زوجها بعيدا في أسبوط ولم يصلهم عنها أي أخبار عن أي علامة من علامات الجنون . . وأخوتها الصبيان قد كبروا وكل منهم يعيش حياة مستقرة لا يعكرها أي شذو . . وإن كانوا كلهم متباعدين عن بعضهم

لا يعلم أحدهم شيئا عن الآخر . . ولا يهتم أن يعلم شيئا عن تفاصيل حياة أمه . . ولكن من أدراها . . أن جنون أمها كان يوصف بأنه جنون هادئ . . ربما كان كل إخوتها مصابين بهذا الجنون الهادئ . . وهل يجب أن تثبت لنفسها أنها لم ترث جنون أمها . . وليست مجنونة حتى هذا الحد الهادئ . .

وقد كان مظهر جنون أمها هو إنعزالها الدائم . . كل ما فيها منعزل من دنياها . . أحاسيسها . . وعقلها . . ووعيها . . منعزلة حتى عن أبنائها . . ويجب أن تطمئن ميرفت إلى أنها لا تنعزل بنفسها أبدا . . يجب أن تعيش مع كل ما حولها . . حتى تثبت لنفسها أنها ليست مجنونة . . وليست معرضة للجنون

وبدأت تعتمد المبالاة في فرض نفسها على كل من تعرفه . . إنها في البيت لا تكف عن ملاحقة أبيها وزوجته وأخوتها بالتدخل في تفاصيل حياة كل منهم . . وكلامها كله صياح ونطراتها كلها كأنها قفارات . . وفي المدرسة أيضا تعيش مع كل الطالبات . . وتضم نفسها إلى كل المجموعات . . وبشرك في كل الرحلات . . وتقبل كل الدعوات . . وهي دائما تنجح في كل امتحان . . أنها تعتمد النجاح حتى تؤكد أنها ليست مجنونة . . وبعد أن التحقت بالجامعة اتسع انفتاحها . . إنها تعيش كل ما في الجامعة . . حتى قصص الحب . . وهي نفسها لم تستطع أن تميز هذا الحب . . أو يطرأ عليها إحساس تفسره على إنه حب . . ولكنها كانت تكتشف أن إحدى زميلاتنا في حالة حب مع زميل . . وتتساءل لماذا لا يحبها هي هذا الزميل . . هل ينقصها شيء ليحبها . . أم أنه يعتبرها مجنونة . . والمجانين لا يصلحون للحب . . وتسعى وراء هذا الزميل حتى تفرض عليه أن يحبها بدلا من زميلتها . . وحدثت نفسها تعيش في عشرات من قصص الحب

لا تكد ترتبط بقصة مع زميل حتى تنتقل إلى قصة مع زميل آخر . . ولكن كان في ميرفت إيمان أقوى منها وهي أنها لا تسمح لأي شاب تجمعها بها قصة حب بأكثر من أن يمسك يدها . . أنها لا تعطيه أكثر . . وهي تعلم

ما هو أكثر تعلم كل شيء عن القبلات والاحضان والالاصقات . ولكنها لا تستطيع . . . وهوليس ايمانها بمبادئ الحرص على اعتزازها بشرقيها . ولكنها طبيعتها . فهي لا تطيق ان تضع شفيتها بين شفتي رجل . او تتركه يلف ذراعيه حول خصرها . . لا تطيق . . بل أكثر من ذلك . . انها لا تفكر أبدا في الزواج حتى تسعى إلى تحقيقه . ولا يطارأ على بالها . . ان حياتها كلها متجمعة في ذاتها ولا تحوجها لان تدخل فيها أي ذات أخرى . .

وقد عرف كل الطلبة طبيعتها . . انها تريد مظاهر الحب ولا تعيش فيه . . ولا تعبر عنه الا بوضع اليد في اليد . . وتنقلاتها بينهم في هذه المظاهر جعلتهم يستهينون بها . ولا يحسدون بعضهم بعضا عليها . كل منهم يعلم مصير الآخر معها . . ويستهينون . . ويضحكون . . ويعتبرونها مجنونة . . إنه نوع من الجنون . .

ولم تعد العائلة تعتبرها فتاة عادية واخوتها يتحملون الضجة التي تثيرها حولهم ساخرين . وزوجة ابيها تتحمل صامته ويدفعها حبها لها إلى تكذيب نفسها . . إنها ليست شاذة . . كل بنت لها خصالها . . اما أبوها فقد بدأ ييأس . . لقد ورث الجنون عن أمها . . جنون له مظهر آخر . . ولكنه بالأمل . . انها ناححة في دراستها . ومن يدرى لعلها تنجح بعد مدة في تحريد شخصيتها من شذوذها . . ولكن ميرفت بعد ان تخرجت بدأت حياة غريبة . . إنها لا تريد ان تنتظر حتى تعينها الحكومة في احدى الوظائف . إنها ليست صغوبة كامها حتى تعزز نفسها في وظيفة حكومية كبقية الناس الناجحين . . وستطيع ان تقتحم ابواب النجاح

لماذا لا تكون مذيعة في التلفزيون . . حتى تظهر صورتها امام الناس وتحادثهم ؟

وبدأت تقتحم حياة العاملين في التلفزيون . . وهي تقف امامهم لا

كانها تشخذ منهم او تستعطفهم أو حتى تحاول اقناعهم . ولكنها تتكلم كأنها تتفضل عليهم بأن تكون معهم وتظهر بينهم . .

ثم فجأة اتجهت اتجاها آخر . . لماذا لا تكون نجمة من نجوم السينما . . لماذا لا تحل محل فانت حمامة . . إنها اجمل منها . . ولا شك انها اقدر منها . . إنها الجبل الذي يحل محل فانت . . وهي قوية تستطيع ان تحقق كل ما تريد . . وليست ضعيفة منعزلة كما كانت أمها او اختها ماجدة . . واقتضعت حياة العاملين في السينما . . وهي ايضا لا تحس بأنها تسعى وترجو ولكنها تتفضل عليهم بالظهور بينهم . .

ثم خطر على بالها خاطر جديد . . إنها يجب أن تكون مشهورة . . يجب أن تعرفها البلد . . تعرف هذه الفتاة الجميلة العبقرية القوية كيف تشتهر؟ يجب أن تكتب كل الصحف عنها . . ستدلي بأحاديث صحفية تؤكد قوة الجيل الجديد . . وبدأت فعلا تتصل بكثير من الصحفيين . كل من تقرا له أو تعرف باسمه تبحث عن رقم تليفونه وتحدد معه موعدا . . ولا تريد منه شيئا إلا أن يكتب عنها وينشر صورتها . . وحديث معها . .

وقد تعرضت لكثير من المعامرات مع كل هذه الاتجاهات التي تخطر على بالها . . إن كل من تصل اليه يستقبلها كفتاة جميلة . . بسيطة . . محبوبة . . وإما أن يطمع في التمتع بجمالها . . أو يشفق عليها لسلطانها . . أو يهرب من جنونها . . ولكنها لا تحس بما يستقبلها الناس به . . لا تحس إلا بثقتها في قوتها . . القوة التي سترت لها طبيعتها في الا تعطي لأي رجل إلا يدها . .

ولكن هذه المرحلة من حياتها كانت تفرض عليها أن تعيش الليل بعيدا عن بيتها . . الليل الذي يجمع العاملين في التلفزيون والسينما والصحافة . . ولم يحتمل أبوها أن تغيب عن البيت في الليل . . آخر موعد بها هو أن تعود في السابعة مساء على الأكثر . . وهي في دخيلة نفسها مرتطة بآبائها . . لا تستطيع أن تتحرر منه بالاستعداد عنه . . فاصبحت

لقد أفرجت مستشفى المجانين عن ملجدة بعد عام واحد لأنه ثبت
أنها مصابة بجنون هاديء يمكن أن تعيش به في بيت العائلة ،
ولكن لم يصدر بعد قرار بالإفراج عن ميرفت ، لأنها تحمل نوعا آخر
من الجنون



معمد أن تعود في الساعة السابعة . . وهو يفلق الباب بالمفتاح بعد أن تصل
ويحفظ به . . وسحب منها المفتاح الذي كان من حقها أن تحمله كقبلة
أحواياها . . وقد وجدت من حقها أن تتحایل حتى لا تطفىء شعلة مشاريعها
الصغيرة . وكانت قد قاومت طويلا حتى لا تلجأ الى هذا التحايل ولكنها لم
يسمطع أن تستمر في المقاومة . . وتركت فراشها في منتصف الليل وأفراد
العائلة كلهم نيام . . وفتحت الباب وخرجت . . أنها على موعد مع الكوكب
السميائي الذي وعدا بأن تكون بظلة فيلمه القادم . . وقد اغلقت الباب
بعد أن وضعت بين ضلفتيه ورقة سميكة حتى يظل مفتوحا لها بعد أن
يعود . . وقد عادت دون أن يحس أحد في العائلة بشيء

ولكنها في المرة التالية قامت من فراشها وارعدت ثيابها ثم فتحت
الباب . . وقبل أن تخرج فوجئت بزوجة أبيها أمامها ، . وحاولت أن تمنعها
من الخروج . . إنها زوجة مطيعة لا تستطيع أن تخالف أوامر وتعاليم
زوجها مهما بلغ حبها لها . . وقامت معركة بينهما وكل منها حريص على
الابتعاد عن صوته حتى لا يصحو الأب ، أو أحد من الأخوة

ودفعت ميرفت زوجة أبيها في عصب . . فسقطت على الأرض وانشقت
رأسها بارتطامها بالحائط ، . وتركتها ميرفت كما هي ، . وأسهرت بالخروج
بعد أن وضعت قطعة الورق السميك بين ضلفتي الباب ، . وكان شيئا لم
يحدث

وعادت ميرفت كعادتها . . وهو حثت بالببت كله متيقظا ملتفتين حول
رأسها أبيها يضمون رأسها المشقوق . . وهي تنظر اليهم دهشة كأنها
تسأل ماذا حدث . . وصرخ أبوها وهو يبéal عليها بكفيه ضربا

- محنوبة . . ورثت الجنون عن امك

ولم يترك المجنونة في جانيها . . ووضع استه في مستشفى العباسية
للمجانين . . أو هو سجن المجانين

أس غيرة راسي..

مى . ويكفي أن زوجى شوقى يتصر على منافسيه ويفوز . وسأتحمل
أصا إلى أن يفوز أخى مراد .

وعاد مراد .

والقى بنفسه منهكا على مقعد بين نساء العائلة .

والتفن حوله يتصايحن ويسالن . . وهو لا يكاد يسمع صياحهن
ولا استلتهن إلى أن هذان قليلا من حوله وتباعدن عنه . واقتربت من
أخته الكبرى دولت وسالته في صوت هانس جاد كأنها تبدأ معه العمل ؟

- ماذا فعلت اليوم ؟

ونظر مراد إلى أخته الكبرى وقدر أن من حقها أن تسأله وقال وهو
يرهره أنعاسا متعبا

- هلكت . . ذهبت في الصباح إلى مكتب الحزب . . ثم ذهبت إلى مكتب
وزير الداخلية . . ثم طفت بعانة بيت . . ومائة مقهى وكافيتريا . . ثم زرت
مائة شخص . . ولا أدري بماذا خرجت من كل هذه المشاوير . . انى اتبع
التقاليد القديمة التى كان يتبعها المرشحون . . لابد أن هناك وسائل جديدة
لاكتساب الأصوات توفر مشاوير النفاق . . إنى منذ اليوم الأول وأنا أحس
بالندم على قبول ترشيحى .

وصاحت فيه دولت كأنها تنهره

- إياك أن تستسلم للتعب أو الندم . . وسيعوضك الفوز عن كل ذلك
ومعرج . . والبلد كلها ستفرح بك . . أنك لا تدري كم تعب زوجى وهو
مرشح وكم فرح بالفوز . . إنها معركة لا يفوز فيها إلا الأبطال . . وانت
بطل

وسكنت دولت برهة ثم استطردت

كانت نساء العائلة محتعدات تتوسطهن الأخت الكبرى دولت .
وأصواتهن ترتفع كالضجيج وكلهن يتحدثن في وقت واحد وفي موضوع
واحد . . كان كل منهن لايهمها إلا أن تتكلم ولا يهمها أبدا أن تسمع . .
وكن كلهن في انتظار الأخ الأصغر مراد التى بشرت الصحف كلها صباح
اليوم خبر ترشيحه في الانتخابات .

وكانت دولت تبدو بينهن كأنها الرئيسة أو كأنها عالمة تعرف كل شيء
عن الانتخابات . . لا تكف عن الكلام . . وتصرخ في وجه من تسمعها
ولا يعجبها كلامها . . أو تصرخ صرخة مبتسمة لواحدة أخرى تؤيدها
ولكنها تفضل أن تسكتها . . وكانت تقاطعهن جميعا قائلة بالصوت العالى .

- ليس بينكن من تعرف عن الانتخابات ما أعرفه . . إنها دنيا
واسعة . . كل حجر فيها تحته سر . . قد يكون تحت الحجر ثعبان سام . .
وقد يكون تحته زجاجة كرونياء معطرة . . واسألونى أنا .

وكن يسألنها . . فهن يذكرن أنها عاشت الانتخابات عندما سبق أن
رشح زوجها نفسه في الانتخابات منذ أكثر من خمس عشرة سنة . . وكان
معروفا أنها جاهدت معه وتعبت مع كل متاعبه حتى فاز وأصبح عضوا مهما
في البرلمان . . وهى تقول كأنها تعيش ذكريات سعيدة

- مازلت أذكر كل خطوة وكل هزة رمش وكل فنجان قهوة
شربته وساهم في إصابتي بقرحة في المعدة . . وكل طلق أكلته وسبب لي
الغصص الكلى . . بل انى كنت أيامها لا أحس حتى بالموت لو اقتربت

- هل بدأت الإتصال بالكمسارية .

وقال مراد في دهشة

- اى كمسارية ؟

وقالت دولت وهى تنظر إليه كأنها تتهمه بالغباء

- كمسارية الترام والمترو والأتوبيس الذين يسيطرون على كل أحياء

الدائرة . .

وقال مراد فى برود

- إن معظمهم أو كلهم ليست أسمائهم مسجلة فى قوائم ناخبى

الدائرة حتى احتاج اليهم بإعطائى أصواتهم .

وصاحت دولت :

- أصواتهم ليست مهمة . المهم أن كلا منهم يمكن أن يكون منشورا

حيا ناطقا للمرشح . . إنه وهو يوزع تذاكر ركوب الترام أو المترو أو

الأتوبيس يستطيع أن يهمس بإسمك فى أذن الراكب بل يستطيع أن

يكتب إسمك على التذكرة حتى ينقله الراكب إلى تذكرة الانتخاب بل أن

زوحى شوقى كان يطبع منشورات ويسلمها لهؤلاء الكمسارية حتى يوزعوها

على الركاب وتصور كم يبلغ عدد الركاب فى الدائرة وكلهم من الناخبين

الذين سنحصل على أصواتهم . .

وقال مراد وهو يبتسم ابتسامة باردة

- فكرة ساحاول

وصاحت دولت

- لا تكفى بالمحاولة . . يجب أن تضع للكمسارية مشروعا

شعبيا وتكون من بينهم هيئة تمثلهم على اتصال دائم بك وتنطق بإسمك

وسمى تعليماتك . وقد تكلف هذه الهيئة كثيرا . فمعظم الكمسارية غلبة

والأشد الحاجة إلى الكثير . . فلا تبخل عليهم . . وكل شئ ينفعه . .

وهوذك فى الانتخابات ثمنه غال . .

وقال مراد ضاحكا :

- حاضر يا أبله دولت . .

وقالت دولت بسرعة

- وسابدا أنا بتكوين الهيئة الخاصة بى . .

وقاطعها دهشا :

- اى هيئة هذه التى تخصك ؟

وقالت مستطردة :

- هيئة ستات البيوت . . إننى أعيد نفس ما كنت أقوم به أيام كان

روحى مرشحا لقد كونت هيئة من ستات البيوت ضمت كل الجارات

والصديقات وطبعا سيدات العائلة ولعلك لا تدري قيمة ست البيت فى

التأثير على نتائج الانتخابات . إنها تملك أولا صوتها كناخبة وصوت

روحها وأولادها وناتحات الكبار ثم أصوات جميع أفراد عائلتها ثم

يستطيع التأثير على صوت كل من يتعامل مع البيت . . صوت الخضرى

والمقال والحزار . . و . . وإذا اجتمعت أغلبية ستات البيوت حول

مأيد مرشح واحد فكانهن أصبحن ثورة ديمقراطية لا يستطيع صوت

أى يفر من بين أيديهن ومن تحت إرادتهن لقد كان من بين عضوات

الهيئة التى كونتها ست بيت رفضت فى صبيحة الانتخابات أن تقدم الإفطار

لروحها وبقيّة أفراد العائلة إلا بعد أن وضعت أمامهم المصحف الشريف

واقسدا عليه أن يتوجهوا إلى مكاتب الانتخابات وينخبوا زوجى شوقى
وإذا كنت قد حققت نجاح زوجى فسأحقق نجاح أخى وحسيى مراد .

وقال مراد منتسما لأخته ابتسامة باردة

- فكرة يجب أن نحققها واعتمد عليك في تحقيقها . . وهي فكرة توجى
إلى بفكرة أخرى قريبة منها . وهي أن تكون هيئة أخرى لاكتساب اصوات
البوابين . ولاشك أن كل بواب يمكن أن يكون له تأثيرا على اكتساب
اصوات كل سكان العمارة التى يجلس على بابها .

وقاطعته قائلة وهي تنظر إليه كأنها تشفق عليه من جهل

- لا . . لا . . إن طبيعة شخصية البواب هي النفاق . . إنه مضطرب
بحكم عمله أن ينافق كل سكان العمارة حتى يضمن الحصول على بقشيش
كل شهر . فهو لا يتحمل مسؤولية إقناع سكان العمارة بل ينتظر ساكنا إلى
أن يدفع له أحد السكان أكبر مبلغ لشراء صوته الإنتخابى . ورغم ذلك
فقد يخدع هذا الساكن ويعطى صوته نظير مبلغ آخر قبضه من عمارة
أخرى . . المهم . . لا تعتمد على البوابين . .

وقال ساخرا

- تحت أمرك . . فانت أستاذة صاحبة خبرة في الانتخابات . .

وواجهته بمفاجأة أخرى

- هل اتصلت بالخانوتى

وانتفض دهنش قائلا :

- أى خانوتى تقصدين ؟

- خانوتى الدائرة .

وقال مقاطعا :

- ماذا اعمل به ؟

وقالت دولت في إصرار :

- إنه اقوى شخصية شعبية في الدائرة وله تأثير كبير في إقناع

الناس

وصرخ مراد نافرا .

- هل تقصدين إقناع الناس بالموت . . إنه لو تدخل في الدعاية لى بين

الناس فكأنى أنا عزرائيل ، وكأنه يريد من الناس أن تنتخب عزرائيل حتى

حقق لهم عدد أكبر من الموتى ويكسب هو أكثر من عمليات نقل الجثث

لا يا ست دولت . . أبعدى عنى الخانوتى . . أن الناس ستهرب منه وتهرب

منى . . إنه شعار الموت .

وقالت دولت كأنها تدافع عن نفسها .

- هذا كلام قديم والدنيا تقدمت وأصبحت تصع كل صاحب مهنة في

مكانه الصحيح . . فالخانوتى ليس مسئولا عن الموت . إنه رحل أعمال .

والناس كلها محتاجة إليه . بل ويتقربون ويتوددون إليه حتى يهتم بهم

عندما يحتاجون إليه . . ويحاولهم بتخفيض أتعابه . . وهو بحكم عمله

مرتبط بكل عائلات الدائرة ارتباطا يصل إلى حد الصداقة فليست هناك

عائلة لم يكن لها ميت أو في انتظار من يتوفاه الله من افرادها . فهي في

حاجة دائما للخانوتى وفي حاجة إلى صداقته واحترامه . وكل عائلة تعلم

انها لو انتخبت مرشح الخانوتى فسيجاملها بالاهتمام بإجراءات الجنائز

والدفن . .

وعاد مراد يصرخ

- إن الناحب لا يفكر في الموت وهو يدلي بصوته . . وأرحميتي من هذه السيرة . . سيرة هذا الحانوتى .

وتركها وفر مبتعداً عنها كأنه يهرب من الموت .

وجلست دولت وحدها ساهمة تستعيد ذكرياتها . . إنها هي نفسها كانت^١ كاخيبها لاتطبق أن تذكر أو تتذكر الحانوتى . . ولا تطبق معرفت شخصياً ولو من بعيد . . إن الحانوتى لا يوجد إلا في يوم الموت . ولا أحد يطبق أن يعيش هذا اليوم إلا إذا مات له عزيز لديه . . بل أن شخص الحانوتى لا يخطر على بال أحد من المعزيين أو من المشيعين حتى يشكروا أفضاله . كما لا يخطر على بالهم عزرائيل الذى اختطف المرحوم . .

ولكن زوجها شوقى عندما رشح نفسه في الانتخابات منذ خمسة عشر عاماً اعتمد اعتماداً كبيراً على حانوتى الدائرة الحاج مديولى . كان دائماً معه ، ويصحبه كثيراً في طوافه بأحياء الدائرة . . وقد رفضت أيامها أن تشترك مع زوجها في الاعتماد على هذا الحانوتى . ولم تتنازل بزيارة عائلته ، كما كانت تزور عائلات الناحبين رغم إلحاح زوجها عليها ومحاولة إقناعها بأن الحانوتى له شأن كبير في نتائج أى انتخابات . إلى أن توفي الحاج مديولى الحانوتى فجأة قبل موعد الانتخابات وأصر زوجها على أن تذهب بنفسها لتقديم العزاء لأهله وتشيع الجنازة وقزف عليه كل ما تستطيع من دموع . . وبلغ إصرار زوجها إلى حد الصراخ والتهديد حتى خافت على حياتها الزوجية كما بدأت تخاف على مصير زوجها في الانتخابات . . أى بدأت تقتنع بأهمية الحانوتى .

وذهبت إلى بيت الحانوتى . . ورغم أنه في حى محترم وفي شقة من عمارة من العمائر المحترمة إلا أنها عندما دخلت فوجئت بمجتمع بلدى بعيداً عن أى مظهر من مظاهر الحياة المودرن كل قطع الأثاث من النوع البلدى المتأخر . . والنساء كلهن ملفتات بالملايات السوداء البلدى . . جالسات على الأرض . . وإن كانت هناك بعض المقاعد الخشبية منتشرة

ومسب الحوائط وحتى الكلمات التى يرددنها في نغم المرحوم كلها كلمات هرسية . . بلدى . . بللى دخلت في بيتى التلاجة يا رحلى . . يالى تركت في شقة ثملك يا حبيبى . . يالى مافيش حتة في بيتى إلا من خيرك يا روح لىسى . . و . . و . . وكانهن يعنين إكرام الله المرحوم بأن زاد دخله بزيادة رائته من الموتى .

وحلست على مقعد من المقاعد التى وحدتها دون أن تنطق بكلمة إلا كلمة تعزیه تضطر إليها . . وطبعاً لم تحاول أن تذرف دموعاً واحدة على المرحوم . . إلى أن جاءت سيدة شابة وحلست بجانبها تتلقى عزاءها . . إنها أحمل شابة بين المعزيات . . جميلة فعلاً جمالاً يلفت النظر حتى نظر النساء . . ولواته جمال بلدى . . وتلبس ثوباً على الطراز البلدى . . وإن كانت رقيقة مهذبة في كلامها ، ولا تصرخ هذا الصراخ ولا تردد نفس الكلام التى تردده بقية النساء . . إنها فتحية زوجة عبد الرحمن ابن المرحوم الحاج مديولى . . وكانت تحمل على ذراعيها مولوداً صغيراً ، عندما خرج نعرش المرحوم تجمع كل النساء في البلكون ليودعه بصراخهن الوداع الأخير . . والتفتت فتحية حولها تحث عمن يحمل لها طفلها لتنطلق إلى البلكون ثم فاجأت دولت بأن وصعت الطفل على ركبتيها . . وتقبلته دولت في صمت وتحملته حتى بعد أن منح نفسه الحرية وتمول على ثوبها وما كادت أمه تعود من البلكون حتى أعادت لها طفلها بسرعة كأنها تخاف أن تتركه لها . . ولكن جمال فتحية ورقتها وهى تشكرها حفف عنها ما أصابها من قرف وهى تخطو خارجة داخل ثوبها الملل بما قدفها به الطفل

ورفضت في اليوم التالى أن تخضع لالحاح زوجها أن تذهب أيضاً إلى عائلة الحانوتى ويتم أيام العزاء . . رفضت في إصرار وأجبرته أن تقوم إحدى إخواته بهذا العزاء بدلا منها

وحدث بعد شهر أن توفت أم دولت . . وموجئت بأن فتحية زوجة عبد الرحمن الحانوتى الشابة الحميلة الرقيقة هى التى جاءت بنفسها

لتقوم بعملية تفصيل المرحومة أمها . معترضة بأن حماتها زوجة الحانوتى مديولى مريضة وقد جاءت بدلا منها . ووقفت دولت معها وهى تفصل أمها . كانت تمد يديها إلى حسد المرحومة فى رفق وحنان وهى تتلو القرآن والدعوات فى صوت وريق كأنها تغنى لها . حتى أن دولت أحست بحب أمها أكثر وفتحية تغسلها فشاركتها فى تغسيلها كأنها تتبارك بحسد أمها وهى تلمسه بكفها بل كانت تنحنى وتقبل أمها على جسدها الميت وتسكب عليه دموعها . كل ذلك من تأثير رقة وحنان فتحية وهى تغسل أمها .

وقد وجدت نفسها تحب فتحية وتدعوها أحيانا إلى بيتها كصديقة . وكان زوجها عبد الرحمن قد ورث مسئولية أبيه وأصبح حانوتى الحى . وإن كان قد تطور مظهره عن مظهر أبيه وأصبح يرتدى دائما البدة أو القميص والبنطلون لا الجبة والقفطان . كما كان يظهر أبوه . وكما هو مظهر الحانوتية . كما غير من المجتمع الذى كان يعيشه أبوه وأصبح أكثر اطلاقا فى المجالات الحديثة كالجلوس مع أصدقائه فى المقاهى الحديثة والاشتراك فى السهرات والتردد على دور السينما . وإن كان قد احتفظ بلبق حاح الذى كان يسبق اسم أبيه الحاج مديولى . رغم أن أحدا لا يذكر أنه قام بإداء فريضة الحج . وكان قد احتبط بصداقة شوقى وسعى معه فى حملته الانتخابية وأصبح أقرب إليه مما كان عليه والده

المهم أن دولت تحررت من عقدة الحانوتى

وعليها هى أن تحرر أخاها مراد من هذه العقدة .

ومد يدلت جهداً واسعاً كان من بينه أن أقامت دعوة إلى العشاء دعت إليها أمها عبد الرحمن الحانوتى وروحته فتحية وأخاها مراد وزوجته مع حضور روحها شوقى النائب السابق . وكانت كلها سهرة الحديث فيها مراد من الانتخابات . وقد لاحظت أن أخاها مراد رغم اشتراكه فى السهرة إلا أنه لا يبذل مجهوداً كافياً لاكتساب الحاج عبد الرحمن المانوتى والارتباط به وتجنيديه فى خدمة الانتخابات

ولم تكف دولت عن بذل الجهد فى كل مكان . . لقد جعلت من هيئة سيات البيوت التى كونتها قوة كأنها زوابع تقصف بالحصى كله حتى تقتلع كل المنافسين لأخيها فى الانتخابات . وكل يومها طواف على البيوت والدكاكين والشوارع والحوارى تدعو لانتخاب أخيها . ولكنها كانت تنور على تكاسل مراد . . إنه لا يشاركها فى كل هذا الجهد الذى تبذله . . أنه يبذل أقل من نصف ما تبذله . . ويتحرك فى هدوء وبرود كأنه يؤدى واجبات رسمية ثغلة . ووصلت بها الثورة إلى حد أن صرخت فى وجهه :

- أنت لا تصلح لترشح نفسك فى الانتخابات

وقال ساخرا

- إنك لا تفهمين ما هى الانتخابات .

وصاحت فى ثورة :

- كيف لا أفهم وقد سبق أن شئت انتخاب زوجى .

قال مستمرا فى سخريته :

- ولا زوجك يفهم فى الانتخابات .

وصرخت

- كيف لا يفهم وقد فاز وأصبح نائبا فى البرلمان .

وقال فى برود :

- لقد فاز بالمقعد لا لأنه يفهم فى الانتخابات ولا بفضل ما بذله للمرشحين . ولكن على أيامه كان الاتحاد الاشتراكى هو الهيئة الوحيدة التى توزع المقاعد . . وكانت قد قررت أن يكون لزوجك شوقى مقعد وأنت تذكرين صديقتنا ابراهيم الذى رشح نفسه فى دائرة أخرى . وكان

هناك إجماع على أنه نال قمة أغلبية أصوات الناخبين ورغم ذلك أعطي المقعد لمنافسه عبد التواب رغم أنه كان منافسا كسولا يبخل على الناخبين حتى يباحين القهوة وزجاجات الكازوزة . . ولكن كان هو الذى اختاره الاتحاد الاشتراكى ليجلس على المقعد . .

وعادت دولة تصرخ :

- هذه ادعاءات كاذبة تحاول أن تبرر بها تراخيك وكسلك . . وعلى كل حال فقد انتهى الاتحاد الاشتراكى . . وأصبحت الدنيا أحزابا .

وقاطعها مراد قائلا فى ابتسامه مرة

- وأصبحت الانتخابات بالقائمة . . هل تفهمين معنى الانتخاب بالقائمة .

قالت وهى تتعدها :

- ماذا تريدنى أن أفهم منها ؟

وقال مراد من خلال ابتسامته الساخرة

- أن الانتخاب بالقائمة معناه أنى لست مسئولاً عن نفسى ، ولكن الحزب هو المسئول عنى أى بعد أن كان الاتحاد الاشتراكى هو المسئول عن توزيع المقاعد وزعت المسئولية على أحزاب كل حزب منها مسئول عن توزيع المقاعد التى يستطيع أن يحصل عليها وقد احترت أنا أن اضع اسمى فى قائمة الحزب الذى احترمه ويصم أصدقائى ولكن الحزب وهو يقوم بالمساعى الانتخابية يركز كل اهتمامه على الاسم الأول الذى يوضع على رأس القائمة لأن هذا الاسم إذا فاز بأغلبية أصوات الناخبين فازت معه بقية الأسماء التى تحملها القائمة لذلك فانت تجدين القائمة التى أعلنها كل حزب تحمل على رأسها إسما براقا لامعا تعرفه مصر كلها . .

وتحدثن بعده أسماء عادية قد يكون بينها أسماء لا يعرفها ولم يسمع بها حتى أهل الدائرة نفسها . . وأنا ولحد من هذه الأسماء العادية وكل ما أعتمد عليه هو صاحب الإسم الذى وضع على رأس القائمة . . وأنت تعرفين أنه إسم محترم

وتلجلجت دولة قليلا ثم عادت تصيح :

- إنى أريد الناس أن يتخيلوك لشخصك حتى لو اضطروا أن ينتخبوا معك بقية أسماء القائمة أريدك أن تكون أقوى حتى من صاحب الاسم الذى يرأس القائمة . . ونحن نستطيع أن نكون الأقوى .

وقال مراد وهو ينظر إلى أخته كأنها جاهلة مسكية

- ليس لنا أى قوة إلا من خلال الحزب . . إنها انتخابات بين أحزاب لا بين أشخاص . . أى أن الذى ليس له حزب لا يستطيع أن يرشح نفسه . . وانت تعلمين إنى إنسان واقعى لذلك فإنى أركز على نشاطى وكل جهدى داخل الحزب واتابع جهوده التى يبذلها حول الإسم الأول بل واشترك معه فى الدعاية الانتخابية لهذا الاسم كما أتابع اتصالاته بالهيئات الرسمية الحكومية التى تشرف على إدارة الانتخابات والباقى من وقتى وجهدى أيدله للناخبين هذا هو الطريق الصحيح لا ضمن الحصول على المقعد . .

وسكتت دولة وهى تائهة . .

ولكنها عادت تبذل كل جهدها للدعاية لأخيها وإقناع الناخبين بانتخابه . .

وسقط مراد فى الانتخابات .

لم يحصل على مقعد

وكان أصدقائه يقابلونه مواسين . . كيف حدث هذا . . كيف سقط
في الانتخابات . . وكان مراد يجيب مع ابتسامته الساخرة :

- أنا لم أسقط . . لا شيء يمس شخصي . . ولكن سقط الحزب في
توشيح الإسم الذي وضعه على رأس القائفة . . إنه رأس غير رأسى . .



هو . . والحمارة . .

كانت السيارة الحكومية المحترمة تتجاز شارع الهرم إلى أن وصلت
إلى قرب نهايته فاستدارت إلى ضفة ترعة المصورية . واستمرت تتحرك في
سرعة هادئة إلى أن وصلت إلى قرية كفر الجبل . وبعدها انتهى الطريق
المرصوف وبدأ طريقا ليس مسفلتا ، وإن كان مفتوحا أيضا لمرور
السيارات . . ولكن السيارة توقفت منذ نهاية الطريق المرصوف ونزل منها
السائق وانحنى باحترام كبير يفتح الباب الآخر . . وانتصب واقفا بجانب
السيارة كأنه جندي يؤدي تحية رسمية . . إلى أن نزل منصور بيه البرهموي
من السيارة . . وقال في صوت هادئ متعال :

- غدا الساعة السادسة والنصف عند الغروب . . لا تتأخروا . . ثم
سار في خطوات وتيرة نحو حمار واقف كأنه في انتظاره ويمسك به صبي
ريفى وبجانبه خفير يرتدى جلبابا ريفيا محترما زاهيا . .

وانحنى الخفير يقبل يد منصور بك وحاول الصبي أيضا أن يقبل
يده . . وفي بساطة رفع منصور بك ساقه واعتلى ظهر الحمار وقاده فوراً في
الطريق غير المرصوف الذي يشق الاراضى الزراعية . .

وقال السائق وهو لا يزال بجانب السيارة :

- الناس تتمنى أن تترك ركوب الصمير وتركب سيارات . . وسعادة
البيه بترك السيارة ليركب الحمار . . ثم استطرد ضاحكا :

- ألي أصله حمار يظل طول عمره حمارا . .



ومنصور البرهومي يهتز فوق ظهر الحمار مرتديا بذلته الكاملة ورباط العنق يلتف حول عنقه في جلال واحترام . والحمار نحيل قصير حتى أن اقدام منصور تكاد تلامس الأرض وهو فوقه . والبردة التي يحبس عليها فوق ظهر الحمار تبدو قديمة مهلهلة لا تليق بمظهر منصور به . وقد ابتعد عنه الرجل والصبي اللذان كانا يصاحبان الحمار وأصبحا يجران خلفه من بعيد وكل منهما حريص على ألا يقترب منه . كأن هذه هي التقاليد التي فرضها عليهما منصور . - أي ألا يقتربا منه وهو فوق ظهر الحمار -

ومد منصور ذراعه وربت بيده على عنق الحمار وقال بصوت مسموع :

- كيف الحال يا محروس . . الحال يحيرني يا محروس . .

وشد منصور قامته واستطرد قائلا :

- ما رأيك يا محروس . . لقد رفضت في العام الماضي خمسة آلاف جنيه بحجة الإصرار على النزاهة . أتذكر ماذا كانت النتيجة . لقد أخذ عباس وكيل الوزارة عشرة آلاف . ولو كنت قد قبلت أنا الخمسة لما وصل اليه ولا سليم . الله يرحمه . . وأنا الآن وكيل الوزارة والمعرض عشرة آلاف . .

وضحك منصور ساخرا واستطرد

- أن ظفر أصبع قدمي يساوي رقبة عباس . . والعشرة آلاف إذا باع إلى يجب أن تصبح عشرين . . ولكن النزاهة يا محروس . . الشرف . أن سمعتي في الحكومة كلها تبرق كالبرق فكيف أصحى بهذه السمعة . ولكن إذا رفضت أنا العشرة آلاف فكم تكون إذا وصلت إلى الوزير . .

وارتعشت جفون منصور فوق عينيه وعاد يحدث نفسه بالصوت المسموع :

- كن عاقلا يا منصور . . لقد عشت طول عمرك نظيفا . إنك لاتخاف أحدا ، ولكنك تخاف الله . . وقد عشت طول عمرك والله يفتيك . . ويصون عزتك وكرامتك أمام هؤلاء الجرايع . . ولن تمد يدك إلى سليم واحد حرام . . ما رأيك يا محروس . . هل أنا شريف أم غبي . .

والحمار يتجه إلى طريق آخر متفرع عن الطريق الزراعي . ثم يدخل في طريق ثالث . . دون حاجة إلى قيادة . . إلى أن وصل إلى البيت في آخر الأرض الزراعية . . ووقف من تلقاء نفسه . وافاق منصور من الخواطر التي تعصف بعقله على صوت ابنه شريف وهو يصيح مهللا في فرح

- بابا . . بابا . .

ونزل منصور من فوق ظهر الحمار في بساطة كانه تعود على الركوب والنزول . . ومد ذراعيه ورفع ابنه يحتضنه ويقبله قائلا :

- أشتريت لك العجلة يا شريف . . وستملك اليوم

وشريف وهو في احسان والده ينظر إلى الحمار في غيظ وسخط وقال لأبيه :

- لماذا لا تأتي إلى البيت بالسيارة يا بابا . . إن هذا الحمار ثقيل الدم وعجوز . . يكاد يموت .

وقال منصور وهو يبتلع ريقه كأنه يبتلع كذبه

- ركوب الحمار رياضة يا ابني . . انه ينشط الدورة الدموية . . وقد تعودت على ركوب الحمار « محروس » حتى لم أعد أستطيع أن استعني عه رغم أنه أصبح عجوزا . .

وسرح منصور في خياله وهو يعود ويقبل ابنه . . أن ابنه لم يفهم ولم يقدر أبدا ما عوده على ركوب الحمار . وما دفعه إلى أن ينظر في حاجة إلى

ركوبه حتى بعد أن ارتقى في حياته عن الطبقة التي تركب الحمير . . بل حتى وهو يشعر أن الناس تعتبره شاذاً غريباً وهو مصمم على ركوب الحمير . . أن هذا الحمير كان دائماً هو الوحى الذى يوحى له بكل ما يقنع عقله . . بل كان مستشاره الذى يناقشه قبل أن يتصرف أى تصرف . . وكل عقل في حاجة إلى أن يستعين بما يوحى له . . لو كان من الشعراء مثلاً لاعتمد على المناظر الطبيعية أو على الظهور الجميلة يستوحى آيات الشعر التي يكتبها . . أو قد يعتمد الرجل الذى يفكر على ما توحى له به امرأة يحبها . . أو قد يعتمد على أدمان تدخين الحشيش أو أدمان الخمر وربما اعتمد على صديق بالذات يحس وهو يتحدث إليه ويناقشه أن عقله متعلق متفتح صريح . . ولا يهم ما يقوله هذا الصديق من رأى . . بل المهم هو أن المناقشة تصل بعقله هو إلى رأى . . وهو لا يحس بعقله متفتحا منطلقاً الا وهو على ظهر حمير . . وتعود بمجرد أن يركبه أن ينطلق معبراً عما يدور بعقله بصوت عال مسموع . . لا يسمعه الا الحمير . .

وقد بدأ الارتباط بالحمير منذ كان طفلاً فقد كان الحمير يأخذه كل صباح إلى الكتاب . . وكان لا يكاد يعقل ظهره حتى يبدأ في مراجعة الدروس التي تلقاها والتي سيجاسبه عليها شيخ الكتاب . . وقد يبدأ في تلاوة الآيات القرآنية المفروضة عليه أن يحفظها . . ثم يلكر الحمير بقدميه ويصيح فيه . . سامع يا حمير . . اسمعنى ثانية هذه الآية . . ويعود هو نفسه تلاوة الآية . . ويصيح مردداً دروس اللغة العربية . . كاف ضمه كو . . كاف كسره كى . . ثم يتهاول بكفه ضرباً في الحمير وهو يصيح . . احفظ يا حمير . . وقد يصيح يروى مشكلة من المشاكل التي تطرأ عليه . . الواد محسن يصطاد العصافير ببندقية أبيه الرش ماذا أفعل أنا . . أن أبى يرفض أن يعطينى بندقية . . هل أسرقها . . ثم ينغز الحمير صائحاً . . ما تشوف لها طريقة يا حمير . .

حتى بعد أن كبر ودخل المدارس الابتدائية ثم الثانوية ثم وصل إلى كلية الحقوق بالجامعة كان يركب الحمير كل صباح إلى أن يصل إلى شارع

الهرم . . ومن هناك يستقل الاتوبيس إلى حيث يذهب . . ويعود ليجد الحمير في انتظاره ليعود به إلى البيت . . وهو كما هو . . لا يكاد يركب الحمير حتى ينطلق لسانه بكل ما في عقله . . وحتى بعد أن أصبح موظفاً في الحكومة لم يفكر في أن يستبدل الحمير بسيارة ولو صغيرة . . أو بموتوسيكل . . أو حتى بدراجة . . كما لم يفكر في الانتقال من بيت العائلة القريب من قرية كفر الجبل . . والحمير لا يزال ينتظره وأن كان لم يعد يحمله إلى شارع الهرم بل يكتفى به إلى بداية الطريق المرصوف الذى كان قد شق على شاطئ « المنصورة » . . وكان حميره الأول يسميه « مبروك » . . ولكن « مبروك » انتهى . . مات . . فبدأ يركب « محروس » . . وهو لم يشتر « محروس » . . والا لما اشترى هذا الحمير القصير الهزيل . . ولكنه كان الحمير الذى وجدته في البيت . . من أفراء العائلة . . وتعود عليه بسرعة . . بل وجد نفسه وهو فوقه ينطلق أكثر مع افكاره وينتهى إلى آراء كانت دائماً صائبة . . إنه مستبشر دائماً بمحروس . . ولا ينسى الأيام الطويلة التي قضاهما معه قبل أن ينتهى إلى طلب نعمات للزواج . . لقد كانت كل عائلته ترفض هذا الزواج . . وهو نفسه كان يجد أن العائلة على حق . . فنعمات هي ابنة فلاح مؤجر عاды لا يلقى بنسب العائلة . . التي تملك عشرين فدانا ملكية خالصة . . حتى لو وزعت الأرض بين الاخوة فلن يقل نصيب كل منهم عن خمسة افدنة . . فكيف يتزوج ابنه فلاح لا يزال يحمل الفاس . . وأولاده كلهم أصبحوا عمالاً وواحداً منهم سافر إلى ليبيا والثانى سافر إلى العراق . . انها فضيحة عائلية لو تزوج نعمات . . ولكن الواقع أن نعمات كانت مله أحلامه منذ نمو شبابه وكانت لاتزال صبية . . ولم تكن كبقية الفلاحات . . لم ترض أبداً أن تستجيب لأبن صاحب الأرض . . كأنها تعتز نفسها من عائلة كبيرة وليس هناك طريق لمن يريدوها الا الزواج . . وقضى شهوراً وهو يناقش الحمير « محروس » دون أن يستسلم لوجيه . . إلى أن استسلم أخيراً وتزوج نعمات . . وأصبح يعيش معها النعيم كله . . والهناء كله . . ونعمات هي التي توحى له دائماً بأن يبقى في هذا البيت . . لقد هاجرت عائلته كلها من كفر الجبل وهو وحده الذى بقى فيها . . كأنه تزوج كفر الجبل منذ تزوج نعمات .

وفي صباح اليوم التالي كان الصبي يقف بالحصار « محروس » أمام الباب ويقف بجانبه الخفير . . . ويخرج منصور البرهمي يحمل ابنه شريف . . ثم أنزله على الأرض قائلاً بعد أن قبله

« ستصلك السيارة لتحملك إلى المدرسة . . بالسلامة .

وقال شريف كأنه يهم بالنكاء :

« تعال معي في السيارة يا بابا . .

وقال منصور ضاحكاً :

« لو كنت تحب بابا لتركته يزاول رياضته ويرعى الدورة الدموية . . ثم أعلتى ظهر الحمار وأبتعد به بسرعة من أمام ابنه كأنه يهرب من محاسنته له . وظل الصبي والخفير يحريان وراء الحمار من بعيد . كما تقضى التقاليد . . وانطلق منصور يقول بصوت عال .

اسمع يا محروس . . لنكن واقعيين ونعترف بأن شركة مدبولي للمقاولات لا تسرق ولا تعش . إن المشروع الذي اتمته في العام الماضي شهد له جميع الخبراء الذين تسلموه بأنه في منتهى الروعة والكمال . وقد مضت شهور منذ تسلم هذا المشروع ولم يظهر فيه شرخ واحد ولا سقطت منه طوبة . . صحيح أنهم يدفعون لكثير من الموظفين نظير تسهيل المعاملات . ولكنهم لا يدفعون على حساب العمل أو من تكاليف المشروع نفسه . . ولكنهم يدفعون على حساب رفع قيمة العملية . . أي إذا كانت التكاليف تصل إلى ألف جنيه يرفعونها إلى عشرة آلاف حتى يغطوا قيمة التسهيلات التي يحصلون عليها من الموظفين . أي أن الموظف لا يأخذ مليماً من شركة مدبولي ولكنه يأخذ من الحكومة كأنه يأخذ علاوة أو مكافأة شرعية لا أكثر .

وسكت منصور البرهمي قليلاً كأنه يستعيد أفكاره ، ثم قال وهو يربت على عنق للحمار محروس

« لماذا تسمى هذه العلاوة رشوة . . حتى إذا لم تكن علاوة فلماذا لا تكون سمسة . . أو عمولة . . العمولات التي تعودت الشركات أن تدفعها لوسطاء في أي عملية تقوم بها . . إن موظف الحكومة هو الوسيط بين الشركة والدولة . . أي أن من حقه أن يحصل على عمولة . . وكل كبير وصغار الموظفين يعيشون على هذه العمولات . . بل لعلك سمعت عن وزراء لـ ورؤساء وزارات كان لهم نصيب في هذه العمولات رفعتهم إلى مستوى أصحاب الملايين . . ولو كانت الدولة قد وصلت من الرقي إلى حد التعامل مع الواقع لاعترفت بنظام العمولات واعتبرته نظاماً قانونياً شرعياً . . وتركت موظفيها يحصلون على حق العمولة علناً . وأن كان الموظفون سيجسرون لأن قيمة العمولة الشرعية تكون دائماً أقل من قيمة العمولة السرية غير القانونية .

وانحنى منصور يربت على عنق الحمار محروس قائلاً كأنه يلوم نفسه

« لماذا أكون أنا الموظف الوحيد في الدولة التي يتمسك بالشرعية والقانون . . وبالتزاهة . . وبالشرف . . إن كل موظفي الدولة يتقاضون عمولات تصل من جنيه واحد إلى مائة جنيه إلى مليون جنيه . . وكلهم «حمد لله معروف عنهم التمسك بالشرعية والقانون والتزاهة والشرف

ثم اعتدل منصور فوق ظهر الحمار ، وقال وهو يبتسم كأنه هذا واستقر على الرأي الذي جاء الوحي به .

« حاضر يا محروس . . اتفقنا . . سأكون واقعياً ولن أخيب أمل مدبولي وشركته . .

وكان الحمار قد وصل إلى أول الطريق المرصوف . . وكانت السيارة الحكومية المحترمة تقف في الانتظار . . وانحنى السائق في احترام كبير يعجب

الباب ووقف منتصباً كالجندي في موقف رسمي . . الى ان نزل منصور بيه البرهومي من على ظهر الحمار وركب السيارة

واللقى منصور بمندوبي شركة مدبولي في مكتبه بالوزارة في اجتماع سريع . . وفي نفس المساء كان المهندس عند المنعم مدبولي كبير مهندسي الشركة نفسه في زيارة منصور ببيته القريب من كفر الجبل . مدعوا على العشاء . . ولم تظهر بينهما زوجته نعمات . . ممنوع . . انها قلاحة وقد احتفظ بها الى اليوم كفلاحة . وتقاليدهم الفلاحين أشرف من تقاليد أهل المدن . . ممنوع أن تشارك الزوجات في اجتماعات الرجال .

وتم الاتفاق على كل شيء . . ان شركة مدبولي دفعت لوكيل الوزارة السابق عشرة الاف رحمه الله ولكنها ستدفع لمنصور الوكيل الحالي خمسة عشر الفا . . وقال المهندس الكبير عبد المنعم مدبولي

- انك اكبر . . واصعب

وقال منصور ساخراً :

- المشروع اكبر . . ان ميزانيته تتوازي ثلاثة أضعاف ميزانية المشروع السابق . . وبالحساب المرقمي فان المبلغ لا يجب أن يقل عن عشرين الفا .

وقال المهندس الكبير هو يقنهد كأنه يستسلم

- امرك . . ودعني أتشرّف بدعوة نفسي الى العشاء عندك مرة أخرى يوم الخميس القادم . . ويكون قد تم تجهيز العقود

وقال منصور ساهما

- مبدن الله .

وهم يودع المهندس الكبير . سيعود اليه الخميس القادم وهو يحمل

حقيبة صغيرة تضم العشرين الفا . . إنه يعلم ان ما يتفق عليه لا يدفع شيك على البنك . بل يدفع كأوراق مالية . ويجب أن يدقق بالآلة تحمل هذه الأوراق أرقاماً مالية متتالية . . وإلا كان من السهل ضيظه بها وإثبات التهمة عليه . . ومهما كان يجب أن يفرح . . إنه اكبر مبلغ يصل اليه دفعه واحدة في حياته . . وهو لا يمكن أن يتهم نفسه بالرشوة . . إنه ينال حقه . . حق العمولة . . حق الواقع .

ولم يكن قد مضى اكثر من أربعة أيام .

وعاد منصور البرهومي من مكتبه ووقفت به السيارة في آخر الطريق المرسوف ورأى الحمار « محروس » في انتظاره . وترك السيارة مندفعاً على غير عادته وهرع الى الحمار كأنه يهجم عليه ثم رفع ساقه وضربه بالشلوت ضربة عنيفة . وقفز الحمار من الضربة ، ولكنه لم يستطع أن يفر والصبي الصغير لا يزال يمسك به . فضربه منصور شلوتاً آخر كان ساقه التي يضرب بها ساق مجنون . . ولكنه رغم ذلك أمسك بالحمار وركبه واستطاع أن يخضعه لإرادته وسار به نحو البيت . . وما كان يبتعد به خطوات حتى صاح :

- أتدري ما حدث يا حمار . . لقد وضعت كل شركة مدبولي تحت الحراسة . . وقبضوا على عبد المنعم مدبولي وبدأوا التحقيق معه . وهم يقولون انه اعترف بكل شيء . الحمد لله . . اني لم أوقع له أى ورقة ولم يضع في يدى ولا ملجم . . الله انقذك في آخر لحظة يا منصور . . بعد يوم واحد كنت ستوقع كل الأوراق وتتسلم العشرين الف جنيه . كنت سأصيع نتيجة غياب هذا الحمار « محروس » .

وضرب بطن الحمار بقدميه المتدليتين فوقه وهو يصيح

- كان يجب أن تقدر أن الأحوال تغيرت . . وأن الصفقة التي تمت في العام الماضي لا يمكن أن تتكرر هذا العام . . ولكنك كنت غنياً . . اول مرة كان

غباؤك يلقى بى فى داهية ويخرب بيتى . . لقد أصبحت حمارا عوزا
لاستطيع أن توحى . أولتهم إلا بخراب البيوت .

وعاد يضرب فى بطن الحمار « محروس » بقدميه ثم هدأت انفاسه
قليلا وعاد يقول :

« ولكنهم قد يطلبونى فى التحقيق للشهادة ضد مدبولى . . ان كل
الوزارة تعلم أبى كنت ثائرا ضد صفقة العام الماضى وأنى استطيع أن أشهد
بكل التفاصيل . ولكنى لو شهدت على مدبولى فقد يفضحنى ويفشى السر
ويعلن أبى طالبته بعشرين ألف جنيه نظير توقيع الأوراق . ولكنه لا يملك
أى ورقة أو أى دليل يثبت به هذا الكلام . وسأكذب حتى لو اضطرت أن
اقسم بالقران كذبا ويحل على غضب الله عابك كده يا حمار ياغبى .
كانى أصبحت على شفا هاوية اما أن انغذ بجلدى أو تحل بى داهية
هذا ما وصلت اليه يا حمار

وكان الحمار قد وصل به الى البيت ونزل من على ظهره ورفع ساقه
وضربه بالشلوط مرة أخرى ثم التقط عصا غليظة كانت ملقاة على الأرض
وانهال عليه ضربا . . وهو يصيح :

« القى بى الغباء فى داهية . . لم أكن أدري أنك فى منتهى الغباء .
يا حمار

وكان ابنه شريف قد خرج اليه وكأنه فرح وهو يرى أباه يضرب فى
الحمار فالتقط هو الآخر عصا من على الأرض وأحد يضرب فيه . الى ان
وقع الحمار « محروس » على الأرض وهو يرفس سيقانه الأربع فى الهواء
كانه يستغيث . . والقى منصور البرهوى بالعصا من يده . . وانفاسه
تتهدد . . وكله يرتعش . . ثم صاح فى وجه الصبي والخفير

« ابحتا لى عن حمار آخر . . لن أخرج غدا بهذا الحمار .



وقشت فى الطريق الآخر . .

عادت زينب من المسرح فى الساعة الثانية صباحا بعد أن انتهت
المسرحية ودون أن تحصى أحد من أعضاء الفرقة المسرحية أو تقول
كعاداتها تصيح على خير . وفتح باب البيت ودخلت وخطواتها ترتعش
بها . ووقفت برهة تنظر الى زوجها الدكتور محبوب وهو جالس كعادته على
مكتبه . بينما رفع اليها محبوب رأسه يستقبلها صامتا بابتسامة كبيرة
طيبة فى انتظار أن تقدم عليه وتلقى بنفسها على ساقيه كعادتها كأنها ترتاح
من مشوارها الصويل وتقبله . وتقول له كلمات حلوة ترع من حلوة
قلباتها . ولكنها وقفت بعيدة عنه . وقد انتقلت رءسها الى كل ملامح
وجهها . ثم ألقت بنفسها على الأريكة وانهارت فى البكاء بصوت عال
كما يبكي الأطفال . .

وظل محبوب جالسا الى مكتبه وابتسامته الواسعة على شفثيه . . لقد
تعود من زوجته زينب على كثير من المفاجآت . ليست هذه هى المرة الأولى
التي تعود باكيا وتنهار فى البكاء . وقد تعود اليه يوما وتفاجئه بالاندماج فى
من وسطها والرقص . وقد تعود اليه وتسقط مستلقية على ساقيه وتنام
نورا نوما عميقا الى أن يحملها بين ذراعية ويرقداه على فراشهما . .

وقد ظلت زينب تبكى مدة طويلة وجسدها يرتعش كله فوق الارىكة .
الى أن هبت جالسة وصاحت من خلال دموعها :

« هذه آخر ليلة أمثل فيها هذه المسرحية . .

وقال محبوب فى هدوء وكأنه يربث عليها بابتسامته

- لماذا . . ماذا حدث أكثر مما يحدث ؟

وعادت زينب تصيح :

- إنى لم أعد أطيق هذا الثعبان . . انه لن يشبع من لدغى بسمومه
الا بعد أن يطمئن إلى أنه قضى على . . بعد أن يتأكد من انى لم أعد شيئاً
بجانب عظمة جنباه . وقد قلت لك انه استدعانى بالامس وقال لى انه
سيجرى تعديلاً بسيطاً فى الحوار يلقيه فى المشهد الذى يجمعنا فى الفصل
الثانى ولم أعترض انى لا أستطيع أن أعترض فحضرتة هو صاحب
الفرقة وصاحب المسرح وهو الأمر الناهى ولا راد لكلمته ثم إنى لم
أعترض لأن هذه المسرحية تدور كلها حول شخصية البطلة وأنا
البطلة . . أنا كل شيء فى هذه المسرحية أنا صاحبة كل هذا النجاح الذى
يضع به المسرح كل ليلة . وإذا أراد أن يريد كلمتين على الحوار الذى
يلقيه أمامى فى هذا المشهد فلا يقلل هذا من قيمة الدور الذى أقوم به . .
وقد سألته بعد أن قال لى انه سيعمل فى الحوار هل نقوم ببروفة
جديدة فرد على بأن التعديل لن يشمل المشاهد وكل ما على هو أن أنتظر
الى أن يتم المونولوج الذى يلقيه . ووافقت بلا اهتمام . الى أن فوجئت
بالمصيبة هذه الليلة ونحن نمثل إنه لم يضاف الى الحوار كلمة
أو كلمتين . . أضاف لنفسه مونولوجاً استمر أكثر من ربع ساعة . . يؤديه
مع حركات غريبة جديدة يقوم بها . وقد كدت أجن وأنا فى انتظار أن
ينتهى من الإلقاء حتى أبدا أنا . بل كنت أقاوم أن أهجم عليه ونحن على
خشبة المسرح حتى أسد فمه عن الإلقاء . . إن ما أضافه يشوه
المسرحية ولكنه لم يكن يهمه أن يشوها كان كل ما يهمه أن يأخذ
المتفرجين منى ويربطهم بنفسه . ومنذ البداية وهو يكره هذه المسرحية
لأنها تقوم على شخصية البطلة . . لا على شخصية البطل أى عليه
هو . بل انه لم يقبل عرض هذه المسرحية إلا تحت الحاح المتعهد الذى
يعده بكل إيراد المسرح . . حتى أنه غير فى عنوانها الاصل . . لقد كان
العنوان « راهبة فى طريق الجحيم » . . ولكن كلمة راهبة تنسب الى

امراة . . أى الى بطلة المسرحية . . فالقى كلمة راهبة من العنوان وجعله
« فى طريق الجحيم » . . حتى لا أمتاز عنه . . حتى لايتأتى المتفرجون الى
ولا يأتون إلا اليه . . ولن أستمز فى تمثيل هذه المسرحية اذا صمم على
الاستمرار فى الحوار والمشهد الذى أضافه لنفسه . بل انى لن أظهر أبداً
على مسرح وجدى فرج . . ولن أعمل مع هذا الأستاذ الكبير الحفير
أبداً . . لن أظهر معه أبداً على مسرح واحد .

وقام الدكتور محبوب من على مكتبته وجلس بجانب زينب واحتضنها
بزرعه وقبلها فوق جبينها ثم قال فى هدوء

- ليس فى كل هذا شيء غريب . . إن القديم يغاردانما من الحديد .
وهو نجم قديم ، وأنت نجمة جديدة تلمعين بسرعة . وحتى عندنا فى كلية
الطب . . الأستاذ يغار من المدرس . . والمدرس يغار من المعيد . . والقديم
يحاول أن يسد الطريق أمام الجديد . وأخبار العيادات الطبية الخاصة
يتناقلها الألباء كأنها أسرار الأعداء . . والطبيب الذى تدر عيادته دحلا
أكثر من الآخرين يواحه أعداء أكثر كل منهم يبحث عن طريق لخراب هذه
العيادة والقضاء على هذا الطبيب . . هذه هى الدنيا . . والنجاح ليس
طريقاً مريحاً يجتازه الموهوبون . النجاح معركة . ليست معركة بين
الأعداء ، ولكنه معركة داخل بوتقة تضم الزملاء الذين يسرون فى طريق
واحد . .

وقالت زينب وهى تجفف بقية دموعها :

- حتى لو كانت هذه هى طبيعة الحياة فهذه هى آخر ليلة أمثل فيها
هذه المسرحية . . بل هذه هى آخر ليلة يجمعنى مع وجدى مسرح واحد . .

وقال محبوب فى هدوء

- لا تستطعين أن تتخذى قرارك الآن وأنت متعبة منهكة

انتظرى الى الصباح وايدئى التفكير من جديد .

وقام من جانبها . . ودخل الى المطبخ وأعد لها كوبا من النعناع المغلى . وفتح درج مكتبه وأخذ قرصا من الأقراص المنومة وعاد إليها قائلا :

- المهم الآن أن تنامى . .

وجلس بجانبها الى أن شربت النعناع وابتلعت القرص وهو يحاول أن يحدثها عن اخبار يومه وهو يعلم أنها لاتسمعه . ثم أخذها تحت ذراعه ودخل بها غرفة النوم وأرقدها على الفراش . وردد بجانبها ووجهها يملا عينيه وابتسامته لاتزال بين شفتيه . .

انه منذ رأى زينب وهى جارته فى شارع المنيرة وهى هذه الشخصية ، ولم تتغير . لعلها كانت ممثلة منذ ولدت . ولعلها كانت تلقى الواوة . وتصيح واء واء . بلهجة تختلف عن واوة جميع الأطفال . كأنها ولدت وهى تحفظ الواوة وتحيد القاءها وتمثيلها أمام المتفرجين . وقد كان أكبر منها بسبع سنوات . . ولكنه عاش وهو يحس دائما أنها معه رغم الاختلاف الواضح بين شخصيتيهما . . فهو هادئ دائما . . منزه . . متحفظ . . وهى دائما شعلة من نار . . لاتكف عن الحركة وعن الضحك وعن النكاه وعن الفرجة وعن الممارك . . وهى منذ وعث وهى تمثل . . كانت تقرأ القصص وانيات الشعر وتمثلها أمامه عندما تكون فى زيارة أخته . أو يكون فى زيارة أحيائها . ثم أصبحت تأتى اليه وحده لتمثل أمامه آخر ما حفظته . . وقد اشتركت فى فرقة التمثيل بكل مدرسة دخلتها ، وكانت تمثل فيها دور البطلة . . وكان يستطيع أحيانا أن يذهب الى حفلات مدارسها ليتفرح عليها وهى تمثل . والواقع انه لم يجر أبدا التمثيل ولم يفكر أبدا فى أن يمثل معها . . بل انه لم يكن أيضا من هواة الفرجة على المسرحيات أو على الأفلام السينمائية . ولكن كان التمثيل بالنسبة له هو فرصة لقاء مع زينب . ولم يكن يحس بها أنها ممثلة وهى تمثل . وكان كل ما يحس به أنها زينب . . وكانت تعلم عنه انه ليس فنانا متخصصا فى الحكم

فى تمثيلها ، ولكنها دائما كانت تحب أن تقوم بالتمثيل أمامه وبما لائها أيضا تعتبر التمثيل أمامه مجرد فرصة لقاء به . . وكان لزينب هواة أخرى اشتهرت بها بين عائلات الحي وهى هواة الرقص البلدى . . إنها رائعة وهى ترقص . . بل إنها كانت تبتكر حركات جديدة فى الرقص كأنها تتطور به الى فن أرقى . . ولكنه كان يحس بنوع من الخجل والحياء وهو يشاهدها ترقص . . خصوصا اذا رقصت أمام مجموعة من أهل الحي . . كان لا يستطيع أن يتحرر من تحفظه الذى يعتبر أن الرقص عيب وتحريض بالنسبة للبيت خصوصا اذا رقصت أمام الناس .

وكبرا . . والتحق بكلية الطب وأصبح طبيبا . . وبعد سنوات كانت قد التحقت بمعهد التمثيل وأصبحت ممثلة . . وتزوجا فى بساطة كان رواجهما كان قدرا طبيعيا وعدا به منذ البداية وكتب عليهما . وتزوجها وهو يعلم انها ممثلة لها كل الحرية وكل الحقوق التى يتطلبها فناها وتزوجته وهى تعلم انه مترمت ومتحفظ وليس من هواة التمثيل وإن كان يعترف به كفن . وكان الفارق الكبير بينهما انه لا يحس بحاحته الى الناس . الى الشهرة . . بل إنه لم يفتتح عيادة خاصة تجذب المرضى بل يعزغ للأبحاث والدراسات الخاصة بعلم الطب . وكان قد عين معيدا فى كلية الطب ومع السنوات أصبح مدرسا ثم استاذ . . ودون أن يعتمد أصبح مشهورا . لا كطبيب معالج ولكن كأستاذ من علماء الطب ورغم شهرته فهو لا يزال صاحب دخل محدود لانه لم يفتتح عيادة يعملها المرضى . . اما هى فإنها متفرغة لفن فى حاجة الى الناس . . الى الجمهور . . وكل ما فى عقلها هو السعى إلى إكتساب الجمهور وهى تمثل أمامه على المسرح . وتحاول الانسائها الجمهور . فتسعى وراء الصحف لتكتب عنها وتنتشر صورها . وتثير مشاكل هنية تحل الجمهور يدخل فى مناقشات جامية حولها

ورغم ذلك فقد استطاعا أن يوفقا بين الشخصيتين . . وقد ربط نفسه بمواعيد عمل زوجته . . تعود أن يقضى الليل يعمل فى أبحاثه الطبية الى أن

الى هذا الحد كان التوافق بين شخصيتهما . . وكان يعيش معها كأنه يعيش مسرحية رائعة تمثلها له وحده . . وكانت تعيش معه كأنه الواقع الوحيد الذى يريحها من متاعب الفن . . الواقع الذى تضطك فيه . . وتبكي وتطلق جنونها ، أو تعيش هدوها بلا تمثيل

ورفع محبوب عينيه الى وجهها ومع ابتسامه ذكرياته . . واطمان الى انها نامت . . وانحنى يقبلها قبلة صامدة كأنه يمسها بشفتيه تيركا بها . ثم أطفأ النور .

وقامت زينب من النوم في الصباح التالى وهى مفزوعة . . كأن الفكرة التى تشغل فكرها لم تتم معها بل ظلت متبقطة فى رأسها طوال تأثير الدواء الموم الذى أعطاه لها زوجها . إلى أن أفرعتها الفكرة من نومها بعد أن استهت سيطرة النوم عليها . وتفتحت عينها على نفس الثورة التى نامت عليها . . لن تستمر فى تمثيل هذه المسرحية . . بل لن تقف على المسرح أبدا بجانب هذا الفنان الصغير وحدى فرج .

ولكنها وجدت أفكارها تتغير . . وجدت احساسا فى العناد والتحدى يتقلب عليها . . انها فنانة فى منتهى عبقرية الفن . وهى ممثلة وصلت الى قمة التمثيل فى المسرح العربى كله . ولن يستطيع أحد مهما وصلت به الفيرة والسعالة ان يعدها عن المسرح . إن دقيقتين تظهر فيهما على المسرح يساويان ليلة كاملة يظهر فيها على المسرح أى ممثل أو ممثلة وستثبت ذلك لهذا الأستاذ وجدى فرج .

ولم تحدث زوجها فى شئ . . ولم يحاول أن يحادثها ، وقدر أنها هائمة تحت عن طريق . . وتركها إلى عملها . . وظلت هى فى البيت مستغرقة فى وضع خطة تعد كل خطوة ، وكل كلمة فيها كأنها تضع مسرحية جديدة . . وخرجت من البيت الى المسرح فى الساعة الواحدة بعد الظهر . انه موعد اجتماع أفراد الفرقة لإجراء البروفات

تعود زينب من المسرح . ونظم مواعيد عمله بحيث لا يخرج من البيت قبل العاشرة صباحا بعد أن تكون زوجته قد استيقظت . وهى قد بذلت أكثر حتى تجمع بين الشخصيتين فهو لا يستطيع أن يندمج فى الوسط الفنى والمسرحى ويشارك الفنانين والفنانات فى سهراتهم وحكاياتهم فامتنت هى تلقائيا عن الاندماج فى هذا الوسط دون أن تفقد حب افراده واحترامهم . . وهو لا يستطيع أن يتردد كثيرا على المسرح ليشاهدها كل ليلة وهى تمثل أو على الأقل ليصحبها الى البيت بعد انتهاء المسرحية . وقد تعودت منه الا يأتى الى المسرح إلا ليلة واحدة فى كل مسرحية جديدة تمثلها . . وقد كانت تحس فى ليلة وجوده بين المشاهدين أن تمثل أحسن وتبذل مجهودا اكبر ، كأنها تمثل له وحده وتتمنى أن تنهزه بتمثيلها . . كما تعودت أن تعود الى البيت فى الليل وحدها بعد أن اتفقت مع سائق تاكسى خاص بأن ينتظرها كل ليلة . فهى لا تملك سيارة لأنها لم تتعلم قيادة السيارات ولا تحب أن تتعلمها . . وكان زوجها الدكتور محبوب لا يتحدث كثيرا عن فنها أو عن قيمة ماتقدمه من فن ، ولكنه كان يجب أن يستمع اليها مهما أطالت فى الحديث عن نفسها وعن فنها . وكانت تصدر عنه أحيانا آراء غريبة . فهو لا يهتمنى لها مثلا أن تعمل فى السينما وتمثل فى الأفلام . . فالسينما فى نظره ليست فنا ولكنها صناعة والاستديوهات مصانع وليست مسارح . . مصانع مقفولة حتى لا يرى الجمهور مايجرى فيها كالشقق الخاصة المخصصة للقاء الرجال والنساء والرقب عليهم . انه يغار عليها من العمل فى ستديو سينمائى ولا يغار عليها من الظهور على المسرح . وهى لأنها تعودت الاستسلام لآرائه تلقائيا رفضت العمل فى الأفلام السينمائية رغم العروض التى تعرض عليها بإلحاح . وقد أحس أن زوجته أصبحت أشهر منه . . وربما أحس أن شهرتها وصلت الى حد أنه أصبح يعرف بها . الدكتور محبوب زوج الفنانة زينب . وربما كان يمكن أن يتضايق ويثور احتفاظا بشخصيته الكاملة بعيدا عن شخصية زوجته . ولكن أبدا . . انه فخور بها . . ويتباهى بأن ينسب اليها أو تنسب اليه .

ودخلت مباشرة إلى حجرة الأستاذ وجدى ووقفت أمامه وهى تبسم
في مرح وتبالغ في حيويتها كأنها أمام أستاذها الكبير وصديقها الحميم .
إنها تمثل أصعب دور في حياتها . دور النفاق والخداع . . وقالت في
بساطة :

- إنى أرى أن يوقف عرض هذه المسرحية .

وقال الأستاذ وجدى في دهشة

- لماذا . . لم يعض على عرضها سوى ثلاثة أشهر .

وقالت فوراً

- هذا يكفى حتى لو كانت ناجحة فيجب الانعوط في استعمال
هذا النجاح حتى يملأ الناس

وقال وجدى وهو يبتسم كأنه بدأ يقتنع

- ولكن أى مسرحية ترين أن نعرضها بعدها .

وقالت كأنها تردد حواراً حفظته

- مسرحية المجنونة . . لقد مضت سنوات لم تعرض فيها . .

وقال وجدى في دهشة

- ولكن ليس لك دور رئيسى في مسرحية المجنونة . . فلماذا
ترشيحها

وقالت في مرح مفتعل :

- لأنى أحبها . إنها المسرحية التى بدأت بها الظهور معك على
المسرح . . وقال وجدى وهو في منتهى الفرح والسعادة .

- أنا موافق . .

وكانت زينب قد اختارت ترشيح مسرحية المجنونة وهى وثيقة أن
وجدى سيرحب بها فوراً . . وهى مسرحية تدور حول شخصية بطل واحد .
وهو الذى يقوم بتمثيل هذه الشخصية . ويستطيع أن يتفرد بجمهور
المتفرجين طوال الفصول الثلاثة دون أن يستطيع أى ممثل آخر أن يشاركه
في إجتذاب هذا الجمهور . . وكانت هذه المسرحية قد بدأت وهى لاتزال
تبحث عن مكان لها بين الممثلين بعد تخرجها من معهد التمثيل . . ولم يكن
سهلاً أن تجد باباً مفتوحاً لها . إلى أن علم أبهم يبحثون عن ممثلة تقوم
في هذه المسرحية بدور امرأة عجوز تجاوزت السبعين من عمرها فتقدمت
نسعى لأداء هذا الدور رغم أنها صغيرة وكانت لاتزال في الثانية والعشرين
من عمرها . . ودهش الأستاذ وجدى من هذه الشابة التى تريد أن تمثل دور
العجوز . . وقالت له . . حبيبونى في أحدى البروفات . . وقد عهد إليها
وجدى بالدور فعلاً ربما اشفاقاً عليها . . وهى فتاة عذبة تبحث عن دور لها
على المسرح . . ولكنها أثبتت قدرتها في هذا الدور رغم أنه كان دوراً قصيراً
لا يتعدى الأداء مدة دقيقتين أو ثلاث في كل فصل من فصول المسرحية
ولكنه كان الدور الذى دفعها خلال سنوات إلى أدوار أخرى أكثر وأهم حتى
أصبحت تنفرد بالبطولة في مسرحية « الطريق الى جهنم »

وقد تعددت زينب أن تختار هذه المسرحية التى تمثل فيها هذا الدور
القصير كأنها مصممة على تحدى وجدى . وعلى أن تثبت له أنه حتى لو كان
هو بطل المسرحية . وكان يفرد بتمثيلها من أولها الى آخرها . فإنه يكفيا
أن تظهر وهى تمثل أمام الجمهور ولو دقيقة واحدة لتأخذ منه الجمهور كله
معترفاً بعبقريتها التى تتحدى بها عبقريته . .

وقد أوقفت فعلاً مسرحية « الطريق الى جهنم » وبدأ الإعلان عن
مسرحية « المجنونة » وقصت زينب أياماً وهى تعد نفسها للدور الصغير
دور المرأة العجوز . . وتضع فيه لهجات تلفيقها نبرات جديدة . . وتبتكر في
اختيار الملابس والمكياج الذى ستظهر به على المسرح

وبدا عرض المسرحية ..

وظهرت زينب تؤدي دورها الذى لم يستغرق في الفصل الاول سوى دقيقتين فإذا بالجمهور يصفق لها تصفيقا صاخبا حتى ان التصفيق غطى على كلمات الحوار الذى دار بعد ان انتهت ..

وفي الفصل الثانى كان دورها يستغرق خمس دقائق والجمهور متعلق بها وبكل كلمة تنطقها ، ثم انهال التصفيق اكثر عما كان خلال الفصل الاول بل ان بعض المشاهدين كانوا يقولون على اقدامهم وهم يصيحون .. برافو .. برافو

وربما احس المتفرحون بنقص كبير في الفصل الثالث لان زينب ظهرت فيه وقد ماتت العجوز وجثتها ممددة على المسرح لا تتحرك ولا تتكلم ..

ولم يعلق لها وجدى بكلمة واحدة عن النجاح الذى حققته بدورها الصغير ولكنه ابتعد عنها كأنه يهرب منها معناتاً رغم انه كان يلاقى هو الآخر عواصف من التصفيق ..

لكنها فوجئت في الليلة التالية بأحد موظفى الفرقة يطهر على المسرح قبل بداية المسرحية ويقول للجمهور .. رجاء عدم التصفيق خلال عرض الفصول حرصاً على عدم إزعاج الممثلين أثناء القيام بأدوارهم ..

ورغم ذلك لم يستطع الجمهور ان يخفى إعجابه بها وهى تمثل دورها في الفصل الثانى فانطلق يصفق

وقبل ان تبدأ البروفات في اليوم التالى فوجئت بالاستاذ وجدى يستدعيها ويقول لها فوراً ودون ان ينظر في وجهها كأنه يهرب من مواجهتها

- انى اضطررت إلى إجراء تعديل في المسرحية .. وقد ألغى دورك في

الفصل الثانى .. أسف .. وجحظت عينها وبدأت ترتعش وهى تحس انها تهم بان تهجم عليه وتقبض على عنقه وتخنقه .. ثم صاحت ..

- ان اقوم بهذا الدور لو عدلت منه كلمة واحدة .. وابحث لنفسك عن ممثلة أخرى .. لن اظهر معك ابداً على مسرح واحد .. انك أنانى انك تغار منى .. انك تريد ان تقتلتى كممثلة قبل ان اقتلك ..

وجرت من أمامه ..

وعادت الى البيت ..

والقت بنفسها فوق الأريكة تبكى وهى تصرخ بالبكاء كأنها تشبع عزيزاً عليها ..

وكلها ترتعش ..

وقالت زينب لزوجها الدكتور محبوب وهى تضغط على شفيتها بأسنانها في منتهى التصميم

- ليس هناك إلا طريق واحد حتى أخدم منى وأخدم جمهورى وأخدم نفسى .. ساكون أنا صاحبة فرقة مسرحية تحمل اسمى

وقال محبوب وهو ينظر اليها في دهشة :

- كيف تكونين صاحبة فرقة .. إنه مشروع يحتاج إلى رأس مال ضخم !

وقالت بمستوى الثقة :

- أعرف من سيعمل هذا المشروع

قال من خلال دهشة :

- من ؟ قالت في بساطة .

- عبد المنعم مرزوق - . إنه مستعد أن يستجيب لكل ما أحتاج إليه وأطلبه .

وسكت الدكتور صجوب كأنه أصيب بصدمة - . ثم قال في صوت خفيض كأنه يصدر قرارا نهائيا :

- إنى غير موافق على أن تكون بينك وبين هذا الشخص أى معاملة .

وقالت وهى تنظر إليه في تصميم إلى حد التحدى :

- لماذا . . لقد اتصلت به بالتليفون وبدأنا نتحدث في المشروع . .

وقال في هدوء لا يحول دون رعشة صفديه .

- لقد سبق أن اتصلنا به نحن الاثنين . . ودعوانا الى البيت على اعتبار أنه من أنصار الفن . فك . . وكان يأتى وهو يحمل لنا هدايا كثيرة ويقضى الوقت وهو يتحدث عن مشروعات فنية يقوم بها لك . ولكن بعد مدة قررنا نحن الاثنين مقاطعة ، اولعله هو الذى سحب نفسه من أمامنا ومن صداقتنا لأنه يئس من الوصول إلى مايريد . إنه لايريد الفن ، ولكنه يريد من تعجبه من الفنانات وهو لا يهتم أن يتفرج على معمله وهى تمثل على المسرح أو على الشاشة ولكن كل ما يهيمه أن يتفرج عليها وهى على فراش بين أحضانها . .

وصاحت مقاطعة :

- لاتقل كلام الشوارع . . إن تاريخ المسرح كله مزدهم بحكايات

عن ممثلات شهيرات كن يعتمدن على رجال اغنياء في تمويل مشروعاتهن ، فقيل عمن إنهن كن يعطين اجسادهن لهؤلاء الرجال نظير التمويل ولكن ما يقال عن تشجيعات وإتهامات ليس لها ما يثبتها . وكل ما يدور في حياك يعتمد على طبيعة المرأة . . وانت تعلم أن ليس من طبيعتى أن استسلم لرجل مهما كنت في حاجة اليه . . حتى لو حاول . . فلنتركه يحاول ونحن متأكدون أنه لن يصل إلى شيء . . لأننا الأقوى . .

وقال بصوته الخفيض :

- ان هناك نوعا من اصحاب الملايين . . نوع معين من التجار او المقاولين أو من رجال الاعمال كما يسمون أنفسهم . . نوع أصبح منتشر في مصر كما هو منتشر في دول البترول . هذا النوع مصاب بعقدة اذلال المستحيل لتحقيق متعة الزهو بنفسه . . فيجرب وراء النساء المشهورات خصوصا الغابات ، وينزف عليهن من ملايين حتى يأخذهن الى فراشه . . ثم يتفاجر في جلساته الخاصة مع أصدقائه بأن يروى الحكاية . وهذا الرجل الذى كما نعرفه هو من هذا النوع من اصحاب الملايين . ولعلك تذكرين أنه روى لنا يوما حكاية عما كان بينه وبين الفنانة المرحومة عطيات . . وإن أطبق أن يبدأ في رواية حكاية له مع زوجتى حتى لو كانت حكاية كاذبة . . إسى لن أسمع لك بمجرد لقائه بل اصمم على أن تقطعى أى تعامل معه حتى حديث التليفونات .

وقالت في حدة كأنها تعلن الثورة :

- ولكنى مصممة . . وسأحدد له موعد لقاء . . إن كل حياتى هى فنى . . وهى إنى ممثلة . . وإلا لم تعد لى حياة .

وقال وهو لا يزال هادئا :

- إذن . . سأتركك وحدك . .

وقالت صارخة كأنها أعلنت الثورة :

- ماذا تعنى . . هل تطلقنى ؟

وقال - وهو يقوم واقفا -

- لا لن اطلقك إلا إذا طلبت انت الطلاق . . ولكنى سأترك لك البيت . فقد كنت أعيش فيه مع ممثلة يحترمها ويحبها الناس . . وإن أستطيع أن أعيش مع ممثلة تفقد احترام الناس .

وقالت وهى تدق الأرض بقدمها :

- أفعل ماأشئت . . إنى مصممة

وبدأ الدكتور محجوب يجمع بعض ملابسه فى حقيبة صغيرة ، ثم خرج إلى بيت أمه . وهى واقفة أمامه مصلوبة ينتفض كل ما فيها من الغيظ دون أن تنطق بكلمة . . ولم تسقط بعد أن خرج وتكى كعابتها كلما واجهت مشكلة . ولكنها ظلت واقفة مصلوبة كأنها تقاوم شيئا فى داخلها . . إلى أن استطاعت أن ترسم ابتسامة بين شفتيها . ثم تحركت ناحية التليفون ورفعت السماعة وأدارت رقم المليونير عبد المنعم مرزوق .

* * *

وكان قد مضى شهر دون أن يلتقيا . . بل دون أن يسأل أحدهما عن الآخر ولو بالتليفون . . إلى أن فوجئ بها يوما تاتى اليه فى بيت أمه . . وهى تبدو ضعيفة منهارة . . واستقبلها قائلا فى دهشة المفاجأة :

- هل تريدان الطلاق .

وقالت فى صوت كأنه صوت بكاء :

- لا . . جئت لأعود بك الى البيت . . بيتنا . .

قال فى فرحة :

- هل عدلت عن تصميمك .

قالت وهى تخفض جفניה حتى لايرى عينيها :

- كنت أعلم أتى لا أستطيع الحياة بعيدا عنك . . كل حياتى كانت معك . ولكنى كنت أحاول أن أحقق المشروع أولا ثم أعود إليك به بعد أن نتأكد أتى لم أستسلم لما يمسنى ويمسك . ولعل هذا الرجل الآخر كان يعلم ماى نيتى . . وكان أشطر منى . . فاشتراط أن يصل هو إلى ما يريد قبل أن يحقق لى ما أريد . . لقد كنت على حق فى كل ما قلته عنه . . وقد عدت إليك دون أن أحقق أى مشروع . . وأنا أسفة .

واحتضنها بين ذراعيه وانهاه عليها بفيلانه إلى أن اعطته شفتيها كأنها تستريح وتنام بين شفتيه

وحلسا إلى أن هدأت وقال لها كأنه يحيى فيها الأمل

- إنك ستقنين ممثلة . . وستكونين أعظم ممثلة فى العالم كله ولكنك لن تعودى وتمثلى مع فرقة يملكها ويسيطر عليها مثل أو ممثلة أخرى . . إن الممثل عندما يكون فرقة فهو يكونها لنفسه وحده . . ويصمم على أن يكون الاسم الوحيد فيها . . والبحال الوحيد فى كل مسرحياته . هكذا كان المرحوم يوسف وهبى مع فرقه . . وهكذا كانت فاطمة رشدى عندما كونت فرقتها . وهكذا كان يمكن أن تكونى انت لو استصعنت تكوين فرقة . . ولكن الفرق المسرحية التى يمكن أن تقسم لى مجال الفن حتى آخره هى الفرق التى يملكها مختصون لهوا مثلثين ولاحتى مألوفين . أما يؤسسونها ويكُونوا تجارا للفن ، والتاجر كل مايمهه هو تحقيق الربح . . وانت تحقيقين ربحا لكل من تعملين معه . . وفى مصر الآن كثير من الفرق التمثيلية يملكها ويسيطر عليها معهود الفن . وقد حققت اسحاق الصاخب لكثير من الممثلات والممثلين . ولو كانت الفرقة التى نضم

مسرحية « ربا وسكينة » يملكها ممثل يقوم بدور في المسرحية . . لا استمرت ربا وسكينة . . وكانت شادية وسهير البابل قد هربتا من هذا الممثل الذي يستطيع ان يفرض نفسه عليهما كصاحب مرقعة . فحاول ان تقدمى نفسك في احدى هذه الفرق . .

« وقالت وهى تحتضنه وتقبله بابتسامتها

- لماذا لم تقل لى كل هذا الكلام قبل أن أعرض نفسى للفشل . .

وقال فى لهجة الطبيب الأستاذ فى علم الطب :

- اردتك ان تجربى الطريق الآخر حتى تقتنعى بهذا الطريق . .

قالت وهى تهيم بالوقوف على قدميها :

- دعنا نعود الى بيتنا :

وقال وهو يشدها بجانحه

- انك متعبة . . واخطى ان أتتركك وحدك عندما اذهب الى عمل . .

فلنلق مع امى اياما الى ان تستردى كل ما فقدته

وقالت من خلال ابتسامتها السعيدة

- حاضر



الطريق الأقرب ..

كان حسام زهران أرحسام به كما يعرفه الناس من أعجب شخصيات المجتمع الراقى . مجتمع أولاد الدوات ورجال الأعمال وكان أعجب ما فيه انه لم يتزوج حتى اليوم رغم انه جاوز الخامسة والأربعين من عمره . . ولم يكن ينقصه شيء حتى يتزوج . . بل انه يعتبر حلما بالنسبة لكل النساء والبنات . وكلهن يندهشن وراءه . وكل منهن تصع له خطة لعلها تجره الى الزواج به . فهو وسيم يبلغ الحد الأقصى من الوسامة . وهو رشيق طويل القامة الرفيعة . . ليس أطول ولا أرفع مما تتطلبه الرشاقة . . منتهى الرشاقة . وهو أنيق يختار البدل والقمصان والكرفنات والأحذية كأنه جمع حوله كل مصممى أمانة الرجال ليعرضوا عليه أرقى وأجمل ما وصلوا إليه . ولم يكن وسيما ورشيقا وأنيقا فحسب ولكنه كان فى منتهى الثراء . ورث عن والده مصانع الألومنيوم بجانب مرارح للفاكهة وعمارات وقبيلات . ولكنه لم يكتف بالأثراء بل تفرغ سموات طويلة للعلم حتى حصل من أمريكا على دكتوراه فى علم إدارة الأعمال . . وإن كان لم يعود الناس على أن ينادونه بلقب دكتور . . إنه يكره أن يعرف بهذا اللقب ربما لأنه يفضل ان يبدو بين الناس بسيطا عاديا دون أن يتباهى بوسامته أو بثرائه أو بـ « شهادة الدكتوراه التى يحملها »

وهو لم يتزوج حتى اليوم . .

أخوه الأصغر تزوج . . وأخته الأكبر تزوجت . . وهو لم يتزوج

وقد احاطته ولحقته به كثير من القصص تحاول أن تدر عدم

رواحه .

قيل عنه أنه ضحية قصة حب وحيدة . . فقد أحب فتاة أمريكية عندما كان يدرس هناك . . وقد خانته مع رجل أحرفكفر بكل بنات العالم . . وأصر على ألا تدخل حياته أى أنثى . . وتوضع لهذه القصة نهايات أخرى . فيقال أن الفتاة الأمريكية كانت ابنة عائلة كيدى . وأنها رفضت أن تتزوج من مصري غريب رغم أنها أحبته حرصا على عدم المساس بمركز أبيها الاجتماعي وهو مرشح لانتخابات الرئاسة . وقيل أن حسام بيه هو الذى رفض أن يتزوجها لانه كبير عائلته في مصر ولا يريد أن يشوه تقاليد العائلة . رغم أنه لم يحب بعدها ولا يزال يسافر كل عام الى أمريكا ليلتقط نظرة اليها ولو كانت من بعيد .

وقيل أكثر من ذلك قيل عنه أنه عنيب أصابه الله بعدم القدرة على التعامل مع الجنس الآخر . . إنه محروم جنسيا . . وإن كان المقربون اليه يعلمون أنه ليس محروما . . وأن له مقامرات هادئة ولقاءات خفية مع نساء في البيت الذى يملكه بين مزارع الفاكهة . . وإن كان لم يصل أى لقاء الى قصة حب . . ولا الى مجرد فكرة زواج . .

وقيل عنه أنه يحب أمه الى درجة العبادة . . ودفعه الحب الى أن يكون لها وحدها ولا يجمع بينها وبين زوجة تتجرا وتحاول أن تضع نفسها في بيته أو في قلبه في مستوى أمه . وهو يعيش مع أمه وحدها بعد أن مات أبوه وتزوج أخوه وأخته وأصبح لكل منهما بيت . وهو يعيش معها كأنه ليس مجرد ابن بل كأنها كل حياته . . حتى أنه يربط يومه بيومها . . وساعته بساعتها . فلا يخرج إلا في الموعد الذى تعرفه أمه ويعود في الساعة التى تنتظرها فيها أمه . ولا يتأخر عنها لحظة خوفا عليها من القلق . وقد يلح عليه أصدقائه بالبقاء في جلستهم فيقول ببساطة :

- لم أستأذن أمى

وقد يضطره عمله إلى التأخر عن موعد عودته إلى أمه فلا يستسلم لعمله إلا بعد أن يحدثها في التليفون ليبلغها أو على الأصح ليستأذنها . .

وارتباطه بأمه كل هذا الارتباط هو ما جعل كل أيامه منظمة تنظيما دقيق . . كأنها دقائق ساعة . . فكل من يعرفه يعرف متى سيراه ومتى سيبتعد . . ومتى سيكون متفرغا للعمل ومتى يكون في راحة . . ومتى يكون جادا ومتى سيضحك . حتى سهراته ومغامراته الهادئة منظمة على مواعيد ثابتة . . كأنه يحمل في جيبه نتيجة مفرسة لاتحدد له الأيام وتاريخ كل يوم من الشهر ومن السنة ، ولكنها تحدد له تحركاته في كل ساعة من ساعات اليوم . . كان روتينيا ولكن هذا الروتين كان يشمل الساعات التى يعطى لنفسه فيها ساعات من الحرية تحقق له سعادته الشخصية وتعطيه كل احتياجاته .

وحسام بيه يسألونه دائما :

- لماذا لا تتزوج ؟

ولكن العادة يرد ضاحكا بنكته يطلقها على نفسه . . ولكنه عندما يرد جادا يقول

- ان الزواج ليس مجرد نظام للجمع بين رجل وامرأة مفروض على كل الرجال والنساء . . إنه إحتياج . . وأنا لست في إحتياج إلى الزواج . .

ولكن إصرار حسام بيه على عدم الزواج لم يكن وحده أعجب مافيه . .

الأعجب هو هوايته الغريبة في اختيار اعداد الاطعمة التى يأكلها . . وهى هواية يبدو بها أحيانا كأنه وضع حيلته كلها في الطبق الذى يأكل منه . . وتجده وهو يأكل يمصص شفتيه ويطلق كلمات الغزل فيما يتذوقه . . الله الله . . ياسلام ياسلام . . ايه الجمال ده كله . . ايه المتعة دى كلها . . ذوقوا ياساس واحمدوا الله وهو يمتعنا بخيراته . . ورغم أنه

يبدو كأنه ينسى نفسه وهو يأكل . يبدو كممن متفرغا بأدمانه كخشاش ينسى نفسه وهو يشد أنفاس الحشيش . . إلا أنه لا يبدو شرها وهو يأكل ولا يبالغ في الكميات التي يلقى بها في فمه بدليل احتفاظه برشاقة قوامه . أو لعله يتميز كما يتميز كثيرون بالقدرة على هضم ما ياكله دون أن يترك منه دهونا تتعلق بخلايا الجسد وتسبب السممة والانتفاخ . أن كثيرين من اصحاب القامة الرشيقة يتكلمون اصعاف اصعاف ما ياكله المنتفخون بالسممة ورغم ذلك لا يتأثر قوامهم . وكأنهم لم يأكلوا شيئا . ويقال عنهم أن أجسادهم تسرق الطعام وتخفيه في عروقهم فلا يبدو عليهم أنهم أكلوا شيئا . ولكن المعروف عن حسام بيه أنه يحرك أسنانه ببطء شديد وهو يعضغ ما ياكله . . كأنه يريد أن يحتفظ بمتعة مذاق الطعام داخل فمه أطول مدة ممكنة قبل أن يصل به الى معدته . مرددا كلمات العزل فيما يتذوقه . .

وقد عرفت اصناف المأكولات التي يدمنها حسام بيه . وهي أكثر من صنف ولكن كل صنف له موسمه الذي يتفرغ له فيه ولا يخونه أبدا مع أى صنف آخر . انه مخلص لكل صنف اخلاص الحب . وقد وضع لنفسه نظاما لتناول الطعام حتى يحصى نفسه من أن يضطر الى خيانة الصنف الذي يدمنه . . فهو يتناول افطارا سريعا خفيفا لا يحوى أكثر من كوب شاي وقطعة من البسكويت مرودة بالجبن الأبيض . وفي الساعة الثانية عشرة ظهرا وهو في عمله يتناول كوبا آخر من الشاي مع قطعة أخرى من البسكويت والجبن الأبيض . اما المائدة الذاكرة بالطعام الذي يدمنه فيجلس إليها في الساعة السابعة مساء بعد أن يكون قد انتهى من عمله . ويجلس إليها طويلا كأنه في لقاء حب . لذلك فهو يعتذر دائما عن كل الدعوات الى تناول العشاء . وقد يقبل دعوة حتى يجتمع بالاصدقاء ولكنه لا يأكل شيئا مما يقدم اليه . فهو يكون قد انتهى من تناول أكلته أو قد يحمل معه الى الدعوة صنف الطعام الذي يدمنه ويشرك معه فيه الداعين والاصدقاء . وإذا أقام هو دعوة للعشاء مدعوته تحمل توقيتا عجبيا لوعده العشاء . . الساعة السابعة مساء . . وقد يتساهل أحيانا فيجعل العشاء في

الساعة الثامنة . . واصدقاؤه يقلبون على دعواته مرحبين فرحين فإن ما يقدمه لهم من الاصناف التي يدمنها يعتبر فعلا اشهى ما يمكن أن يتذوقوه .

وليس معنى ذلك أن حسام بيه كان يدخل المطبخ بنفسه ليعد صنف الطعام الذي يدمنه . . لاسجال أمامه لدخول المطبخ وعمله لا يتيح له الساعات الطويلة التي يحتاج إليها إعداد الطعام . ولكنه كان يدرس فن اعداد هذا الصنف من الطعام دراسة كاملة . . بكل تفاصيله وكل أنواعه . . ويلقن الطباخ مائدرس . وهو طباخ قديم في خدمة العائلة وتعود على مزاج ومذاق حسام حتى أصبح يستطيع دائما أن يرضيه ويحقق ما يريد . وفي نفس الوقت كان حسام يلقي أمه ما درسه ويعتمد عليها في الاشراف على الطباخ . وأمه لم تعد تعيش الا لاسعاد حسام وارضائه وهي تعلم أن قمة ارضائه هي أن توفر له هذا الصنف من الطعام الذي يدمنه .

وكان أشهر ما عرف من اصناف الطعام التي يدمنها حسام هو ادمانه لاكل طبق طيور السماء . . السماء المشوى مع الارز الدمياطي والسمان المقل . . وما يحيط بأكله السماء من مقدمات ومشهيات . وموسم السماء ووصله إلى سماء مصر ثم الى مائدة حسام يبدأ في شهر سبتمبر ولا يستمر الا ثلاثة شهور . أى يهجر السماء سماء مصر في اوائل ديسمبر ولكن حسام كان قد تعود أن يجمع من طيور السماء ويحضرها في ثلاثيات خاصة بحيث يتمتع بأدمانه ستة شهور على الأقل من العام . وعندما يجد حسام بيه أنه أصبح مجرورا من السماء ولم يعد لديه منه شيئا تتنابه نوبة من الحسرة ويضيق في حسرته كأن جبينه قد هجرت ثم لا يلبث أن يفرق في ادمانه الثاني ادمان أكله الجمبرى بكل اصنافه . الجمبرى الصغير داخل طبق الارز بالكاري . . والجمبرى الكبير المشوى . . أو مخلوط . . بانيه . . أو جمبرى مسلوق على البخار لا على النار بالبصل . . ويعيش تمتعا بأدمانه لكل اصناف الجمبرى . وإن كان

أحيانا يجمع بين الجمبرى وسمك لانخوست فكلاهما يتميان الى فصيلة واحدة من أهل البحر .

ولكن كان يظهر عليه أحيانا ادمان آخر يعتبر غريبا بالنسبة للطبقه الراقية . . فقد كان يدمن أيضا أكل الكوارع . واستكمل كل الدراسات عن خصائص الكوارع التي يمكن أن يلقيها للطباخ حتى تصل اليه وهي في منتهى روعتها وممتعة أستطاعهما . الكوارع البتلو . وهي أخف أنواع الكوارع من ناحية الطعم وأقدها على أعداد أطباق الحساء الممتعة . . والكوارع الكندوز . . انها أصلح أنواع الكوارع التي تقدم مع أطباق الفتة بالأرز والخبز . والكوارع الضانى التي تخبى من عظامها وتقدم على قمة أطباق ورق العنب المحشو بالأرز وحبات اللحم المفروم . . كأنها تاج يفتح الشهية لأرقى درجات متعة المذاق . وهو يعلم طيما أن إعداد الكوارع يتطلب أن يبقى على النار ثلاث ساعات على الأقل حتى تلين وتتجاوب مع أسنان الأكلة . . ثم أن على الطباخ أن يتعمد إزالة البقع السوداء من فوق لحم الكوارع حتى تصبح بيضاء صافية في لون الورد الأبيض الذى يبارك الحب . . حب الكوارع .

وهكذا كان حسام بيه زهران . .

وجاءت أيام بدأ فيها من يعرفون حسام بيه يلاحظون تغييرا كبيرا في روتين حياته . . أن الساعات المحددة بالنسبة لعمله . . وبالنسبة للقاء أصدقاء ومعارفه . . بدأت تختل . . بل عرف أنه ليس دائما في بيته في الساعة السابعة مساء ليتناول وجبته الرئيسية ويلتقى بأدمانه سواء لقاء السمان أو الجمبرى أو الكوارع . .

الى أن بدأ الناس يتحدثون عنه وعن السيدة هدى المرحوشى . .

وهدى كانت دائما في حياة حسام . . فالعائلتان متقاربتان . . وأم

هدى تعتبر دائما الصديقة الأولى لأمه وبما مرتبطتان أحدهما بالأخرى كأنهما أختان . حتى أن حسام منذ صغرة كان يعتبر أم هدى كأنها خالته ويناديهما ، طنط . . كما كانت هدى تنادى أمه طنط . . وتعتبرها أيضا كأنها خالتها . . وكانت هدى معروفة منذ صغرها بأنها ست بيت ممتازة وأنها تهوى الطبخ . وهو ما كان يفرلها حتى إقبالها على التعليم ونفورها من المدارس ورسوبها المتتالي في الامتحانات الدراسية . . وقد تزوجت هدى وهي في العشرين من عمرها وهاجرت مع زوجها الى أمريكا حيث استقرا هناك . ولكن ظل معروفا عن هدى احتفاظها بطابع البيت المصرى والمطبخ المصرى حتى في أمريكا . وكانت كل خطاباتها الى أمها تتعلق بشئون البيت والمطبخ . . وأمها ترسل اليها دائما كل ما يحسد من هذه الشؤون وكانت هدى تأتي لزيارة أمها كل عامين لتقضى معها شهرا . وأمها تذهب اليها أيضا لتقضى معها شهرا . . أى أن الرباط العائلى مستمر بما فيه الارتباط بعائلة حسام . الى أن مر حوالى خمسة عشر عاما ونوف زوج هدى في حادث . . وعادت الى مصر دون أن تقر الاستمرار فيها فقد كانت قد اكتسبت الجنسية الأمريكية وأقامت حياة كاملة هناك

ودعاها حسام الى تناول وجبته معه . وهي تعرف كل شيء عن حسام . . تعلم أنه يتناول وجبته الرئيسية في الساعة السابعة مساء . وليس هذا غريبا . ففى أمريكا أيضا يتناولون الوجبة الرئيسية في مثل هذه الساعة بعد الانتهاء من العمل . . وتعلم أيضا أدمانه لأنواع معينة من الطعام . . وقد وجدت نفسها تتعمد اجادة طهو هذه الابواع . . السمان والجمبرى والكوارع . . وأن بينها وبين حسام دائما ومنذ كان في صباها نوع من التقارب العاطفى المريح . . كأنهما أخوة . . أو كأنهما في منتهى الصداقة . . وكان كل منهما يحس بمنتهى الراحة مع الآخر . . وتستند جلساتهم بين ضحكات ومشادات وحكايات على طول ما يستطيع كل منهما مع الآخر . . وربما خطر على بال كل منهما أن يطور هذا التقارب الى حياة كاملة . . ولكن الحياة سارت معها قبل أن يجمعهما أى تطور . هدى

تزوجت من آخر رغم ما كانت تحلم به . وقبل أن تخطر فكرة الزواج على
بال حسام . . وهى لاتخطر على باله حتى اليوم . .

ورغم أن موسم السمان كان قد انتهى إلا أن حسام قدم لها وجبة
كاملة من الذى يختزنه . . وهو يتغزل في كل قطعة يقطعها . . ويروى
حكايات طويلة عن السمان كأنه يروى حكاية حبه . وهى تتحداه وتروى
هى الأخرى حكايات عن أكلة السمان لتشت له أنها تعرف عن حبيبته أكثر
منه .

وبعد أن طالت السهرة قالت له

- غدا سأقدم أنا وجبة العشاء . . عندنا في البيت .

قال ضاحكا :

- ماذا تعدين لي ؟

قالت في إصرار

- لن أقول لك . .

قال كأنه يتباهى بحبه

- طبعاً ليس عندكم سمان . . لذلك سأحمل لك طبق سمان من
عندى

وصرخت

- لا . . أنت حر فيما تحبه وأنا حرة فيما أحبه ولن تستطيع أن
تفرض على حبي . . ولوجئت معك بأى مما يؤكل فلن أضعه أمامك على
المائدة حتى لو أصررت على الأكل .

واستسلم حسام وهو يضحك كأنه مقبل على مضادة جديدة بينه وبين
هدى .

وعندما ذهب إليها في اليوم التالى في الساعة السابعة وجلس على
مائدتها وبدأ تقديم الطعام فوحى بأنها تبدأ بتقديم ثمرة خرشوف كاملة
مسلوقة . . إنه طبعاً يعرف الخرشوف ولكن لم يخطر على باله أبداً أن
يأكله . . وقال في عجب :

- ما هذا .

قالت وهى تشد ورقة من ثمرة الخرشوف وتشد طرفها بأسنانها .

- خرشوف . .

وكأنه أراد أن يبدأ بمسايرتها فمد أصابعه وشد ورقة خرشوف هو
الأخر وشد فيها بأسنانه . ثم أخذ برفة طويلة وهو يستطعم مذاقها . ثم
شد ورقة أخرى وأخرى إلى أن أتى على كل الأوراق واكل أيضاً قلب
الخرشوفة الذى يحمل الأوراق وهو لا يزال يستطعم المذاق كأنه يقوم
بتحليل كيميائى داخل فمه . وهى تتعنه بعينها دون أن تعلق بشيء وإن
كانت الابتسامة لاتفارق شفتيها

ثم جاء إلى المائدة الطبق الثانى . . وهو أيضاً خرشوف محشو باللحم
المفروم « المعصج » ومعه حبات من الصنوبر ومحاط بالصلصة البيضاء
والجزر . . وأخذ حسام مدة أطول في تذوق هذا الطبق ودراسته

وجاء الطبق الثالث . . أنه أيضاً « دقية » من الخرشوف المسلوق
بالزيت وسط حبات من الفول الحارثى وه الشبث « وقطع الليمون . . وهو
طبق يقدم بارداً . . كأنه طبق الحلو الذى يقدم بعد العشاء . واستغرق
حسام مدة طويلة في تذوق هذا الطبق . ثم قال بعد أن انتهى «

- سأتناول عشائى غدا معك ايضا . .

وقالت هدى فى فرح :

- ماذا تريد ان اعد لك

وقال فوراً :

- خرشوف طبعاً . . انى مازلت مترددا فى الحكم على مذاقة وفى تأثير

هذا المذاق على .

وقضى السهرة معها . . وهو تمر به فترات يصمت فيها ويسرح بخياله
كانه يستعيد ذكري مذاق الخرشوف حتى يتخذ قرارا بالنسبة له .

وتناول الخرشوف فى اليوم التالى

ووجد نفسه يعترف بأنه وقع فى إدمان حديد . إدمان الخرشوف

وقال لهدى

- أريد ان اعرف كل التفاصيل عن اعداد الخرشوف وظهره حتى

ألقنها لطباخى ويقدمه لى كل يوم فقد وقعت فى هواه

وقالت هدى ضاحكة :

- لن يستطيع أن يعد لك المذاق الذى أعده أنا لك . .

وقال محتجا :

- لماذا . . هل تلجئىن الى السحر وأنت فى المطبخ ؟

وقالت كأنها تشفق عليه

« لا . . ولكن الحكمة الشعبية تقول « ان الطبخ بالنفس » . . أى أن

طهو الطعام يتم بانفاس الطاهى . . ويختلف مذاق الصنف الواحد مما

يطهى باختلاف انفاس الطهاة . . ان مجرد اختلاف حركات اصابع الطاهى

يختلف معها مذاق الطعام . . ومايمكن أن يعده لك طاهيك من الخرشوف

لايمكن ان يكون فى مذاق مااعده لك . .

وصاح كأنه يدافع عن نفسه

« ان طبابخى الاسطى محمود هو عبقري الطهاة فى مصر كلها . . وقد

أوقمنى فى حب السمان والجمبرى والكوارع فلماذا لايجمى حبى الجديد

للخرشوف . .

وقال فى هدوء المشفق :

« إن الاسطى محمود كان أول من أعد وقدم لك . . وأنت تحب

سمان الاسطى محمود وجمبرى الاسطى محمود وكوارع الاسطى

محمود . . ولكنك أحببت خرشوف هدى . .

ورغم ذلك أصدر حسام أوامره الى الاسطى محمود بأن يعد له أطباق

الخرشوف يعد أن ضغط على هدى حتى كشفت له عن كل اسرار

الاعداد . . وهو نفسه قام بدراسات خاصة حول الخرشوف . . ووجد

الاسطى محمود نفسه على علم تام بالخرشوف . . انه طعام منتشر معروف

وأعداده سهل . .

ولكنه عندما أكل خرشوف الاسطى محمود وجد فرقا كبيرا فى مذاقه

عن خرشوف هدى . . رغم أن طبق الخرشوف نفسه لاينقصه شيء فى

اعداده يستطيع أن يلوم عليه الاسطى محمود . . ربما كانت الحكمة

الشعبية صحيحة . . « ان طهو الطعام يستمد مذاقه من انفاس

الطاهى » .

ولا يدري أحد ما إذا كانت هدى قد أغرت حسام بطبق الخرشوف حتى يتزوجها . . أم أن كل ما حدث كان صدفة . . على كل حال فإن هدى مقتنعة دائما بالحكمة الشعبية التي تقول « إن أقرب طريق إلى إقناع عقل الرجل وقلبه هو الطريق إلى معدته . . الطريق إلى بطنه » .



وأصبح يقضى أيامه بين السمان أو الجمبرى أو الكوارع ثم يلج عليه ادمانه بحاجته الى الخرشوف فيهرع الى هدى ويتناول عندها أطباق الخرشوف . .

ومرت اسابيع الى أن أصبحت هدى مضطرة الى العودة الى أمريكا . .

وبدا حسام يحاول أن يشبع ادمانه بخرشوف الأسطى محمود . . ولكنه مستحيل . . وحاول أن يتخلص نهائيا من ادمان الخرشوف . . ولكن مستحيل أيضا . .

وبدأت الفكرة تخطر على باله لأول مرة . . لماذا لا يتزوج هدى . . وحاول اقناع نفسه بأنه لا يتزوجها من أجل الخرشوف . . إنها عاشت معه في كل حياته . . وهى المرأة الوحيدة الذى يجمعه بها كل هذا التقارب ثم انها الوحيدة التى تتمنى أمه وتفرح بأن تعيش معها . .

وسافر الى أمريكا . . وعرض على هدى الزواج . . وفرحت هدى فرحة صارحة . . أنها أمنية عمرها منذ كانت صبية . . وستصفي كل مالها في أمريكا وتعود الى مصر وتعيش مع حسام . . وقال وهو يحتضنها كأنه يعرف لها

- لقد كنت متزوجا من ثلاثة . . السمان والجمبرى والكوارع . . وستزوج الرابعة . . ستزوج الخرشوف .

وقالت ضاحكة .

- وسأحتفظ لك بزواجك الرابع . . وإن كانت الزوجة الرابعة ستكون دائما الأحب

وكانت

إنه منذ تزوج وأصبح له بيت وهو يعتبر نفسه غير مسئول عن إدارة شئون هذا البيت . . إنه متفرغ كل التفرغ لشئون عمله . . وما يدره عليه عمله من كسب مالى يضعه كله في يد زوجته بعد أن يحتفظ لنفسه بما يقدر انه يكفى تكاليف حياته خارج البيت . . فزوجته هى المسئولة عن إدارة شئون البيت بما فيها شئون الأولاد . . وزعم أن دخله الذى يدره عمله قد ارتفع كثيرا . . وأصبح يعتبر من الأغنياء . . إلا أنه لم يكن يهتم بمعرفة كم أصبح يكسب . . وكما يدر في البنك . . فكل ذلك من اختصاص زوجته . . وهى حرة في تصرفاتها . . وليس معنى ذلك أنها تخفى عنه شيئا . . إنها تحدث دائما في جلستها التى تعودوا عليها قبل تناول طعام العشاء عن كل تصرفاتها خلال اليوم . . وعن كل قرش صرفته أو ادخرته أو دفعته لمصلحة الضرائب . . فهى المسئولة أيضا عن محاسبة مصلحة الضرائب . . ولكنه لا يهتم بمراجعة ماحدثه عنه أو مجرد فهمه . . فهو مطمئن إليها كل الاطمئنان . . ويعتبر هذا الاطمئنان هو الذى يوفر له تفرغه لعمله وبجاجة فيه

لقد كان يعيش في البيت كمتفرج . . وزوجته قادرة دائما على أن تسعده بما يتفرج عليه . . حتى أصناف الطعام لم يكن يختار منها شيئا أو يوصى بشيء . . أنه يحس بأنه يتفرج على كل ما يقدم إليه ثم يسعد بتذوقه . . وقد كانت زوجته كأنها تعيش في بطنه وتعرف أسرارها فلا تقدم إليه الا ما يثير شهيته ويحقق متعته بما يأكل .

الى هذا الحد كان سعيدا باستسلامه لزوجته . . انها ست بيت ممتازة وزوجة ممتازة وأم ممتازة .

ولكنه كان يهب عليه إحساس بمسئوليته عن البيت والعائلة في لحظات طارئة عندما تشكو إليه زوجته . . وكان يفاجأ بأى شكوى كان ليس من حقها أن تشكوه . . فهى المسئولة وهو مجرد متفرج . . ولكن زوجته كانت تفيض بشكواها وتستمر في ترديدها كأنها تصرح وتكفى وتستقيث به حتى يخرج من طبيعته كمتفرج ويحس بمسئوليته . . ولكنه إحساس لا يخرج عن تهدئة زوجته بتدليلها والتحايل عليها حتى تهدأ

وكانت زوجته لاتعلن شكواها أبدا إلا من الشغالات اللاتى يخدمن في البيت . . وعلى الأخص المتخصصات في خدمة الأبناء . . إنها تكاد تجن . . فلم يحدث أن استقرت شغالة في البيت . . من تعجبها وتريحها تهرب من البيت لتعمل خارج مصر أو في بيت آخر يدفع لها أكثر . . ومن لاتعجبها ولاتريحها تطردها . . ولم يستقر في البيت الا شغال نوبى . . عثمان . . وقد مضى عليه في خدمتهم أكثر من عشر سنوات حتى أصبح كأنه فرد من أفراد العائلة . . وربما كان سر مقائه أنه يعتبر في تصرفاته وتحركاته كأنه شخصية شاذة . . وربما كان من شذوذه أنه لم يتزوج رغم أنه وصل الى الأربعين من عمره . . ولا يفكر في الزواج . . ويعيش كإن كل حياته في هذا البيت الذى يخدم فيه . . والروجة لاتعصى من شذوذه عثمان فهى صابغة موهبة في التعامل مع الشاذين . . أنه هو نفسه . . زوجها . . يعتبر شاذاً بين الأزواج . . ولكن خدمة البيت لايمكن أن تكتمى بعثمان وحده . . أنه بيت كبير وقد أصبح الأبناء ثلاثة . . والبيت في حاجة قصوى الى شغالة أو شغالتين تخدمان بجانب عثمان . . وطوال هذه السنوات لم تستقر في البيت أى شغالة . .

إلى أن عاد يوما إلى البيت وفتح الباب بمفتاحه الخاص وإذا به يفاجأ أمامه بفتاة عربية . . ووقف يحدق في وجهها متعجبا . . لايمكن أن تكون هذه الفتاة من مصر . . فعيناهما ضيقتان مشدودتان . . وأصابعها اطلس وشفتاهما تغطيان فما وأسعا حدا . . وقامتها قصيرة . . ولون بشرتها اسمر مشوب بالأصفرار . . وهى واقفة أمامة صامتة لا يتحرك فيها شيء ولا حنى

ابتسامه كأنها قطعة من الحجر . وهرب من أمامها دون أن ينطق بكلمة
وجرى الى زوجته يسألها في لهفة .

- من هذه ؟

وقالت زوجته في فرحة كأنها ثرغريد .

- إنها الخادمة الجديدة . إنها من الفلبين .

ثم انطلقت الزوجة ترى في تده كيف استطاعت أن تحصل على خادمة
من الفلبين . فإن ابن عم صديقتها كوثر يعمل هناك وقد اصبح من بين
أعماله تصدير الفتيات الفلبينيات الى مصر ليعملن خادما لدى العائلات
المقتدرة . وقد استطاعت أن تتفق معه على تصدير هذه الخادمة .
ومرتبها مائة وخمسون دولارا في الشهر تصعها لها في البنك . صاحب
ثمن تذكرة الطائرة التي حملتها الى القاهرة . وتعهدها بأن تدفع لها ثمن
تذكرة العودة الى بلادها سواء في أجازتها او إذا قررت ان تهجر العمل في
مصر . . وبعد ذلك فكل نفقات حياتها الخاصة على حساب العائلة .

ولم يحاول أن يناقش زوجته في التفاصيل . كيف استطاعت أن
تتصل بفريق صديقتها الذي يقيم في الفلبين . وكيف تستطيع أن تدبر
تكاليف هذه الخادمة من ميزانية العائلة . وكيف تحصل على الدولارات
التي تدفعها لها . انه من عادته الا يهتم بالتفاصيل المتعلقة بشئون
البيت . . ولكنه سأل زوجته :

- كيف تتحدثين اليها . . بأي لغة ؟

وقالت في فرحة .

- بالانجليزية . . إنها فتاة مثقفة متعلمة . . بل قالت لي انها متخرجة
من الجامعة في بلادها . . واعتقد انها من عائلة محترمة . . فاعمل في خدمة

البيوت لايشين اى متاة فلبينية . ومن أرقى من بنات تايلاند اللاتي اصبح
بعضهن يعملن أيضا في مصر . . انهن أرقى وأنظف . . فرق كبير بين بنات
الفلبين وبنات تايلاند . . ولذلك فاجورهن وتكاليفهن أعلى . .

وهو يستمع الى كلام زوجته الكثير وهو ساهم . . ويسخر بينه وبين
نفسه من أحوال الدنيا . . ان خدم البيوت من أبناء وبنات مصر يهاجرون
للعمل في الخارج . . وكان الحل الوحيد هو ان تستورد البيوت المصرية
خدما احاب من الخارج حتى تعطى التقص الذي تعانيه . ولعلنا لو كنا
ندفع اجر الخدم المصريين بالدولارات كما ندفع للخدم الاجانب لما
هاجروا ولما استوردنا .

وقد أصبحت متعته وهو في البيت أن يجلس متفرجا على هذه الخادمة
الفلبينية . . واسمها فيوليتا . . ويحس بها كأنها قطعة اثنيثا اثرية
اشتراها من الخارج ليزينوا بها البيت . وهي فعلا خادمة رائعة تؤدي كل
مسئولياتها أداء كاملا لا تحتاج فيه الى اى ملاحظة . وكانت تقوم الى
العمل في الساعة السادسة صباحا وتظل تعمل حتى التاسعة مساء . وفي
الساعات التي تخلو فيها من العمل تجلس وتكتب خطابات لاهلها . .
خطابات طويلة وكثيرة . وقد أطل بعينيه على بعض هذه الخطابات وهي
تكتبها . . فوجدتها تكتب باللغة الانجليزية . . وبخط واضح مذهب يؤكد
انها فعلا مثقفة . . ولكنها دائما صامتة . . لا تبدأ أبدا بحديث . . وتتلقى
ما يوجه اليها من حديث وتجبب بهزات رأسها . وهو لم يتعود أن يتحدث
الى أحد من الشغالين في البيت . . واذا أراد شيئا فهو يطلبه أولا من
زوجته . . حتى لو كان يريد مجرد كوب من الماء يشربه . . وزوجته هي التي
تأمر الخدم بمطالبيه . ولكنه كانت تمر عليه لحظات يضطر فيها الى توجيه
كلامه الى الخادم او الخادمة . وكان لا يستطيع ان يوجه كلامه الى فيوليتا
الا باللغة الانجليزية . . وقال لزوجته ضاحكا

- انى احس كأنى أصبحت اقيم في فندق . فاسى لم اتعود ان

أحداث الخدم باللغة الانجليزية في بيتي ، ولكنى احادثهم بها في فنادق أوروبا . .

والمهم . . ماذا حدث لعثمان عندما وجد بجانبه هذه الفتاة الفلبينية تشاركه في خدمة العائلة . . وقد استقبلها ساخطا . . يرفض التعامل معها . . وقدرت الزوجة أن عثمان ربما علم بقيمة المرتب الذى تدفعه لفيوليتا . . وهو أكثر من ضعف مرتبه . . والأسرار داخل البيوت لا تبقى اسرار مدة طويلة . . لذلك اسرعت الزوجة ودور أن يطلب منها عثمان شيئا ورفعت مرتبه عشرة جنيهات . . ولكنه لا يزال اقل من مرتب فيوليتا . . ولكنه ليس الفارق في المرتب فحسب . . فربما ضاق عثمان بأن فيوليتا لا تعيش كأنها شغالة وفي مستوى مجتمع الشعالات الذى تعود عليه . . فهي تندو دائما وهي تقوم بعملها في ثياب أنيقة مودرن جاءت بها معها من بلادها إنها تبدو من بنات العائلة لا خادمة من خادمتها رغم اختلافها في الشكل . . ثم ان العائلة خصصت لها فراشا كاملا مريحا ودولابا تحتفظ فيه بشيائها ولوازمها في غرفة الابناء . . كأنها هي أيضا من الابناء . . في حين ان عثمان ليس له الاغرفة مهمة فوق السطوح . .

واكثر من ذلك . . فقد كانت الزوجة حريصة على أن تظل فيوليتا سجيئة داخل البيت . . فلا تصحبها معها عندما تخرج . . ولا تتركها تخرج مع الاولاد في أيام الاجازات . . ولا أن تذهب لتعود بهم من المدرسة . . فقد كانت الزوجة تخشى أن تعرض عائلة أخرى فيوليتا لتأخذها لخدمتها . . بعد ان انتشرت بين العائلات عمليات « لطش » الخادومات الاجنبيات كما « تلطش » الخادومات المصريات . . ولذلك حرصت على أن تبقئها سجيئة داخل البيت . . ولكن الاتفاق مع فيوليتا كان يفرض ان تمنح اجازة يوما من كل اسبوع . . وقد اختارت أن يكون يوم الاحد . . وحجتها انها تعودت أن تذهب الى الكنيسة وتصل في هذا اليوم . . ووضعت الزوجة تخطيطا جديدا يوفر لفيوليتا حقها وفي الوقت نفسه يضمن عدم « لطشها » منها وسحبها الى خدمة عائلة أخرى . . فسمحت لها بالاتصال باثنتين او ثلاثة من

الفتيات الفلبينيات اللاتي جئن للعمل في مصر عن طريق ابن عم صديقتها كوثر . . وافقت معها على ان تذهب معهن الى الصلاة في الكنيسة كل يوم احد ثم تدعوهن لتناول الغداء وقضاء اليوم داخل البيت . . كأنها سمحت لها باقامة حفل كل اسبوع تدعو اليه صديقاتها . . وان كانت الزوجة قد بدأت بعد ذلك ينتابها الهلع فقد سمعت ان فتاة تايلاندية تعمل لدى احدى العائلات المصرية وقفت امام ربة العائلة وقالت لها ببساطة إنها تريد ان تتعرف الى صديق شاب . . فهي لا تستطيع أن تعيش شبابها وهي محرومة . . ومن يدري . . ربما طلبت فيوليتا أيضا ان يكون لها صديق شاب . . او ربما فوجئت بها وهي تدخل البيت في يوم الاحد ومعها هذا الشاب . . وتحاول الزوجة أن تطهر هذا الهلع . . لا ان فيوليتا فتاة مهذبة محترمة . . ثم انها من الفلبين وليست من تايلاند كالفتاة التي سمعت عنها . . وقد سألتها يوما وهي تفعل التضاحك معها :

- ألا تفكرين في الزواج يا فيوليتا ؟

واجابت فيوليتا في هدوء :

- إن ما اخره من مرتبي حتى اليوم لا يكفي للزواج . . وعندما يكفى سأنزج في بلدي . .

انها فتاة مهذبة جادة .

وربما كانت جدبتها وتفانيها في خدمة البيت والعائلة مما دفع عثمان الى أن يلين في معاملتها . . والى اقتراب التفاهم بينهما . . واصبحا يشتركان في اعمال البيت بروح صافية وتلف كامل . . كأن عثمان قد نسي كل ما تأخذه من العائلة أكثر . . بل انه بدأ ينطق بعض الكلمات الانجليزية أخذا من فيوليتا . . وهي أيضا بدأت تتكلم بعض الكلمات العربية احدها من عثمان .

ومر عام وست البيت فخورة بالقمة التى وصل بيتها اليها . . قمة الاستقرار والنظام والراحة . . لم يعد اى شيء يتعيها فى ادارة البيت ولاشك ان فيوليتا كانت صاحبة الفضل فى كل ما وصل البيت اليه ولكنها فوجئت ذات صباح بخبر مشور فى كل الصحف وصرخت كأنها نكبت فى عزيز لديها . لقد قررت الحكومة مع استخدام بنات جنوب شرق اسيا كعاملات أو خادمات فى البيوت أو الإقامة فى مصر . . أى بنات الفلبين وتايلاند ومأحولها . . وسيقبض البوليس على كل من يجده من هؤلاء البنات ويرحلهن الى بلادهن .

وقد ابلعت الخبر الى فيوليتا وقررت ان تسجنها داخل البيت حتى لايراها البوليس فى الشارع . بل تكاد تحسها داخل دولاى حتى لايراها احد من المترددين على البيت ولكنها تعلم ان كل هذا لايكفى . وتكاد تجن ما هذا الظلم . . كيف تسمح الحكومة للبنات المصريات بالهجرة للعمل فى الخارج ولا تسمح للبنات الاجنبيات بأن يكن بديلات عنهن ويعملن فى الداخل . . وهى منذ البداية تعمدت ان تستكمل كل الاجراءات الرسمية ليكون لفيلوليتا حق الإقامة والعمل فى مصر . . ولكن ماذا تفعل الآن . . وحيرتها تمرقها وتكاد تكذب على الناس وتقول لهم انها طردت خادمتها الفلبينية . . كأنها تخدع البوليس والمخابرات . . وتخدع الدولة . .

ومرت ايام طويلة قبل أن تقول لها صديقتها كوثر التى تستخدم هى الأخرى فتاة فلبينية

الحل الوحيد الذى وصلت اليه بعد ان استشرت وتحيرت هو أن أزوج خادمتي بأى رجل مصرى . . انها بذلك يكون لها حق الإقامة والعمل فى مصر طول عمرها . . لماذا لم يخطر على بالها هذا الحل . . انها تعرف ان كل الشبان والبنات الذين يهاجرون الى الخارج يكون اول ما يسعون اليه هو الزواج من اهل البلد حتى يكون لهم حق الإقامة فيه . ومحمود ابن الشيع راحى هاجر الى امريكا وتزوج فتاة أمريكية ليكتسب حق الإقامة . . وانجب

منها ولدين . ولكنه بعد عشر سنوات ترك زوجته وأولاده لأنه قرر ان يعود الى مصر . .

ستنزوج فيوليتا فى مصر .

ولكن تزوجها من ؟

واقبلت على زوجها وهى لاتكف عن ان تروى له كل تفاصيل المشكلة يوما بيوم . . رغم انها تعلم أنه لن يبذل أى جهد معها سوى تدليلها للتخفيف عن عذابها . . وسألته . . الا يعرف أى رجل يمكن ان يتزوج فيوليتا . . انه ليس زواحا بالمعنى المفهوم . . انه مجرد اجراء رسمى كاستخراج ترخيص لها بالإقامة والعمل . وبدلا من ان تدفع الرسوم للموظف المختص تتزوجه . وقد يقبل هذا الرواح اى رجل غلبان فانها مستعدة ان تدفع له ثمنا لقبول هذا الزواج . حتى لو اضطرت ان تدفع له مرتبا شهريا باعتباره زواجا مهملا ليس له حقوق الزوج . وقال زوجها ضاحكا :

الاسهل أن اتزوجها انا . . ونحل المشكلة . .

وصرخت فى وجهه

قطع لسانك . .

ثم لمعت عيناها ببريق ذكائها . . انها تعرف من يتزوج فيوليتا . . انه عثمان . . ولن يشير اى شكوك فكلاهما يعملان ويقيمان فى بيت واحد وسواء تزوجا أو لم يتزوجا فلن يعلم احد . . انها بهذا الزواج تحمي نفسها من اتهامها بالتحايل على الحكومة .

ونادت فيوليتا ودخلت معها فى حديث طويل . . انها طبعاً لاتقبل عثمان كزوج . . انها مثقفة ولها طموحها وعثمان يعتز جاهلا ولايحقق شئنا

من هذا الطموح . . ولكن ما سيتم ليس زواجا ولا يربطها بشيء . . ستبقى كما هي . . تنام وحدها في غرفتها . . ولا تلتقي بعثمان الا وهما يعملان في البيت . . وتستطيع في اى وقت ان تترك البيت ومصر كلها وتعود الى بلادها . . وورقة الزواج التى تكتب في مصر لاتساوى شيئا في القلبين . .

واستقرت فيوليتا في التفكير كأنها تراجع جداول الحساب . . ثم هزت رأسها موافقة . . انها موافقة على الزواج من عثمان . . فقط لتبقى في مصر . . وتتحرر من اختبائها داخل البيت وتستطيع ان تخرج الى الشارع دون أن تخاف القبض عليها . .

بقى ان تقنع عثمان بهذا الزواج . .

ولكن كيف تقنعه ؟

انه انسان شاذ في كل تصرفاته وتحركاته وحتى فيما يقوله . . وقد يدفعه شذوذه الى قبول هذا الزواج ببساطة . . ولكن . . من يدري إن الشواذ لا يدري أحد ما يقدمون عليه وما يقبلونه أو يرفضونه .

وانفردت بنفسها ساعات تعد كل كلمة ستقولها لعثمان . . ثم نادته . . ووقف امامها مستسلما . . وبدأت بأن ذكرته بقرار الحكومة بابعاد كل العاملات في البيوت الاجنبيات ومن بينهم فيوليتا . . وهو يعلم انها خادمة شاطرة ومهذبة ولم يحدث منها ما يشينها . . وقد أصبح البيت في اشد الحاجة اليها . . والوسيلة الوحيدة لتبقى فيوليتا معهم هي أن يتزوجها . .

وقال عثمان كأنه لا يصدق اذنيه

- من يتزوجها ؟

وقالت وهي تنسم له ابتسامة واسعة .

- انت يا عثمان . . وانت تعرفها و

واقاطعها في حدة

- عيب يا ست هانم . . انى لم اتزوج حتى اليوم ، ولا أفكر في الزواج . . وحتى اذا ثوبت الزواج ، هلن اتزوج بت غريبة تتكلم الافرنجية . . ومسيحية . . ستكون فضيحة تشمت في كل اهل البلد . . اننا يا ست هانم لاتتزوج الا من بنات بلدنا

ورفعت صوتها على صوته وصاحت

- انه ليس زواجا يا عثمان . . انه مجرد ورقة تترك فيوليتا تعيش معنا . . وسيبقى كل منكما في حاله . . وهذه الورقة ستبقى سرا وساحتفظ بها معي . . حتى زوجى واولادى لن يعرفوا عنها شيئا

وقال عثمان وقد اختلج صوته كأنه غاصب أو قرفان :

- ليس هناك مايبقى سرا يا ست هانم . . خصوصا عن عم جمعه البواب . . وسيعرف كل ما في العمارة بأن فيوليتا أصبحت منسوبة الى . . والله اعلم ماذا سيقولون . . وعن ادلك يا ست هانم انى ساترك الشغل عندكم . . حتى تجدى شخصا اخر يتزوج هذه البنت . .

واذا ر ظهره خارجا . . فقامت منظورة وجرت وراءه وامسكت به وهي تصيح

- لا يا عثمان لاتترك البيت . . ولن ازوجك فيوليتا . . لن تتزوج ابدا .

واحنى عثمان رأسه وهو يتنهد كأنه يضمه جراحه وقال

- حاضر يا ست هانم . . انت الخير والبركة . .

وعادت والحيرة تسيطر عليها وهي تبحث عن الوسيلة التي تحفظ لها وجود فيوليتا . .

ومضت أيام وست البيت مستسلمة لليأس . . وليحدث ما يحدث .
سواء بقيت فيوليتا أو لم تبقى فانها تستطيع ان تعيش والبيت سليم . .
ولكنها بدأت تلاحظ انفراد فيوليتا بالجلوس مع عثمان ساعات طويلة في
الفترات التي لايعملان فيها . والحديث بينهما معظمه بالاشارات وتنطلق
خلاله الكلمات الانجليزيه التي تعلمها عثمان والكلمات العربية التي تعلمتها
فيوليتا

ومضى حوالى اسبوعين عندما فوجئت بعثمان يقف امامها ويدأها
قائلا في صوت خفيض يتعثر بين انفاسه وجفنيه مرتختين فوق عينيه كأنه
لايستطيع ان ينظر اليها :

- لك حق ياست هانم . - اتنا في حاجة الى فيوليتا لخدمة البيت . .
وانا لم أعد أستطيع ان اعمل وحدى . . حتى لو اضطررت الى ان
اتزوجها . .

وشهقت ست البيت من دهشة المفاجأة وقالت في فرحة كأنها تزغرد

- هل لتزوجها ياعثمان .

وقال عثمان كأنه خجول

- الامر امرك ياست هانم .

وسالت نفسها خلال فرحتها . كيف قبل عثمان زواج فيوليتا . .
لايد أنها اقنعتة بأن يتزوجها . . ولكن كيف اقنعتة . انها في منتهى الذكاء
ومنتهى الشطارة ولاشك انها كانت تريد الاطمئنان الى بقائها في مصر . .

لاحقا في مصر ولا في عثمان ولكن حرصها على اجرها الكبير الذي تتقاضاه
بالدولارات . .

وسارعت ست البيت بعقد زواج عثمان وفيوليتا . . وقد راعت ان
يعقد في السر ودون ضجة . . فاستدعت الماذون الى البيت في ساعة الظهر
وأوقفت امامه العروسين وطلبت من زوجها ان يوقع كشاهد رغم أنها
كانت قد وعدت ان يبقى الزواج سرا حتى عن زوجها ارضاء لعثمان . بل
انها اكتشفت ان هذا العقد يجب ان يسجل في مكاتب الشهر العقارى حتى
يصبح عقدا كاملا وتعترف به الحكومة . . فان العروس لحنية .
فاستطاعت ان تعد كل شيء ليذهب عثمان ويسجل عقد زواجه . وقد دفعت
هى كل تكاليف هذا الزواج . . وان كانت لم تفكر طبعاً في دفع المهر او شراء
شبكة . . وان كانت قد رفعت مرتب عثمان عشرة جنيهات أخرى شكراً
ومكافأة له على زواجه من فيوليتا

وتصورت ست البيت أنه لم يتغير شيء في حياة البيت بعد هذا
الزواج . ولم يزد شيء إلا اطمئنانها الى بقاء فيوليتا معها ، ولن تستطيع
الحكومة ان تطردها من خدمتها والحياة تسير في روتينها العادى تنام
فيوليتا في مكانها المعد لها في غرفة الأولاد . . وينام عثمان في حجرته فوق
السطوح . . ساعات العمل لا تختل . . ولكنها لاحظت ان فيوليتا بعد ان
ينزل عثمان من السطوح تسرع وتعد له كوب الشاي ويجلس مرتاحا
وهو يشربه . . ثم لاحظت انها بعد ان تنتهى من اعمال البيت تصعد الى
السطوح دون استئذان بينما يبقى عثمان داخل الشقة ولا يصعد معها
ربما تصعد وحدها لتقوم بتنظيف وتسوية الغرفة التى ينام فيها زوجها
إنها زوجة كاملة . . ثم فوجئت في صباح يوم الاحد وفيوليتا متكاسلة عن
الذهاب الى الكنيسة كعادتها . . وسألتها في دهشة

- ألا تذهبين الى الكنيسة ؟

وقالت بلامبالاة

- انى اصلى بينى وبين نفسى فعثمان لايريدنى أن اذهب الى الكنيسة .

وقالت محتدة :

9 - هذا ليس من حقه . - إن الاسلام يبيع الحرية لكل دين . - حتى لو تزوج مسلم من مسيحية .

وقالت فيوليتا فى هدوء :

- سواء كان من حقه أولم يكن ، فان هذا يريجه . -

بل إن فيوليتا لم تعد تذهب الى صديقاتها الفلبينيات يوم الأحد .
انما أصبحت تقضى يوم الاجازة كله فوق السطوح وفى غرفة زوجها . - حتى وهو بعيد عنها يعمل فى الشقة لأن اليوم ليس يوم اجازته . - بل أصبحت عندما تدعو صديقاتها كما تعودت لاتدعوهم الى داخل البيت بل تدعوهم للجلوس معها فوق السطوح . -

ولم تحاول ست البيت أن تتدخل فى هذه التغيرات التى تحدثت ، فكلها تغيرات لاتؤثر فى اعمال البيت رغم انها تدهش لاي تغير فى حياة فيوليتا وعثمان رغم انها لايعيشان حياة زوجية كاملة . - ولايزال كل منهما مستقلا بشخصيته عن الآخر وياما وحده فى مكانه ولم تتدخل الا عندما حاولت أن ترسل فيوليتا الى السوق لتشتري بعض الاحتياجات . - فرفضت معذرة . - لأن عثمان يرفض أن يسمح لها بأن تخرج وحدها . - ويراها اصدقاءه ومعارفه فى الطريق من يدري ربما تجرا عليها أحدهم ولكنها أصرت على أن ترسلها الى السوق ، ونادت عثمان وأبلغته باصرارها على أن تخرج فيوليتا . -

وقال عثمان فى اصرار هو الآخر :

- لا يصح ياسيديتى أن تخرج وحدها . - وإذا أصرت سيادتك فسأخرج معها .

- إن عثمان يتغير لم يعد هذا الشخص الشاذ فى بساطة ساخرا من كل شيء . - مستسلما حتى لفقره .

وقد اضطرت ست البيت يومها أن تكلف عثمان بالذهاب الى السوق وحده بدلا من زوجته فيوليتا حتى لاتثير أزمة معه فى مواجهة اصراره

وربما كان على حق فى هذا الاصرار فان خبر زواجه من فيوليتا لم يعد سرا وعرف بين كل من فى العمارة . - بل وعرف خارج العمارة حتى أن احدى صديقاتها فاجأتها فى احدى الزيارات قائلة

- سمعنا ان خادمك الفلبينية تزوجت من السفرحى الذى يعمل عندك

وافتعلت ضحكة واجابتها قائلة :

- إنها حكاية حب . -

وكانت تكذب . - فعثمان وفيوليتا لم يتزوجا عن حب . - انهما تزوجا بتخطيط وضعته لتهرب من قرار الحكومة بطرد فيوليتا . - وهذا الزواج لم يعد سرا وتستطيع أن تنكره فعلى الأقل تحاول أن تنفى عن نفسها انها خططته تحايلا على قرار رسمى . -

الى ان فوجئت يوما بعثمان يقف امامها بعد انتهاء عمله وقال بصوته الذى شمله التغيير أيضا وأصبح صوتا جادا ليس فيه ربة الشذوذ

- ياست هانم . - لى طلب أرجو الا ترفضيه . -

وقالت مبتسمة

- اطلب يا عثمان .

وقال دون ان يهتز او يرتعش . .

- انى اعلم ان فيوليتا تقض مرتبتها بالدولار . وانا ايضا اريد ان
أخذ بالدولار . .

وانتفضت مذعورة ، وقالت وكأنها تصرخ :

- ان فيوليتا لاتأخذ دولارات ولكننا نضعها لها في البنك ويحول الى
عائلتها . . وانت وعائلتك تعيشون في مصر فما حاجتك الى الدولارات .

وقال عثمان وهو يتنحنع في هدوء :

- لقد اصبحت اعرف كل شيء عن عائلة زوجتى . . لقد اصبحت
عائلتى . . واعرف اين تذهب الدولارات التى توضع لها في البنك . . واريد
ان احصل انا ايضا على دولارات حتى نكون في حالة واحدة . و

وقاطعت صائحة

- ان زوجى وسيدك وسيد البيت لايقبض بالدولارات حتى نوزعها
عليكم . وانا اعانى مصاعب كثيرة لاحصل على الدولارات لفبوليتا . . وإن
استطيع ان احصل على المزيد لادفع لك ايضا بالدولار . . وإذا كنت تريد
زيادة مرتبك بعد ان تزوجت . . فقد أعطيتك زيادة . . وقد أعطيك اكثر . .
ودائما أعطيك بالجنيهات لا بالدولارات

وقال عثمان وهو يبتعد في هدوء :

- شكرا يا ست هانم . . ولامؤاخذه . .

وابتعد عنها دون ان يزيد إلحاحا وأصرارا . . وهى متعجبة . . كيف

خطرت له فكرة ان يأخذ أجره بالدولار . . لاشك ان فيوليتا هى التى وضعت
هذه الفكرة في رأسه وحرصته عليها . . إنها وحدها التى تعرف قيمة الدولار
وتحتاج اليه في تعاملها مع الخارج . . ونادت فيوليتا وأخذت تناقشها كأنها
تصب غضبها عليها وتهم ان تضربها . . وفيوليتا لاترد الا بكلمات عابرة
لامعنى لها . . إلى ان صاحت في وجهها

- حذرى عثمان الذى أصبح زوجك من ان يعود الى حديث
الدولارات . . والا حرمك انت ايضا منها . . مانت اليوم زوجة مصرية وكل
حقك لايتعدى الجنيهات المصرية . .

وانتهت الازمة . . وحتى ترضيها . . ابلفت عثمان بانها قررت ان
تعطى زوجها فيوليتا عشرة جنيهات كل شهر علاوة على مرتبتها بالدولار حتى
تطفى احتياجاتها التى تجدها في مصر . . وقالت له ضاحكة :

-انى لا أعطيها الا لانى اعتبر ان ما أعطيه هو لك . .

كم مضى ؟

شهران . . ثلاثة . . أربعة . . واستيقظت ست البيت من النوم ذات
صباح فلم تجد في البيت لا فيوليتا ولا عثمان . . وجنت وهى تهربول بحثا
عنهما . . الى ان وجدت خطابا متروكا في مكان ظاهر على المائدة ويحمل
اسمها . . وهو خطاب باللغة الانجليزية كتبته لها فيوليتا . . وهى تعتذر في
كلمات مهذبة عن ترك الخدمة هى وزوجها عثمان . . وقد سافرا للعمل في
السعودية . . وهما وان كانا يقبضان مرتتهما هناك بالريال السعودى الا ان
من السهل تحويله الى دولارات . .

وسقطت منهارة . .

وداهمها وهى منهارة تسأول كان غائبا عنها . . كيف استطاعت
فيوليتا ان تخرج من مصر في حين انها تحتفظ بجواز سفرها معها . . كأنها

- اطلب يا عثمان .

وقال دون أن يهتز أو يرتعش . .

- انى أعلم أن فيوليتا تقبض مرتبتها بالدولار . . وأنا أيضا أريد أن
أخذ بالدولار . .

وانتقضت مدعورة - وقالت وكأنها تصرخ :

- ان فيوليتا لاتأخذ دولارات ولكننا نضعها لها في البنك ويحول الى
عائلتها . . وانت وعائلتك تعيشون في مصر فما حاجتك الى الدولارات . .

وقال عثمان وهو يتنحنح في هدوء

- لقد أصبحت أعرف كل شيء عن عائلة زوجتى . . لقد أصبحت
عائلتى . . وأعرف أين تذهب الدولارات التى توضع لها في البنك . . وأريد
أن أحصل أنا أيضا على دولارات حتى نكون في حالة واحدة . . و . .

وقاطعته صائحة :

- ان زوجى وسيدك وسيد البيت لايقبض بالدولارات حتى نوزعها
عليكم . . وأنا اعانى مصاعب كثيرة لأحصل على الدولارات لفبوليتا . . وإن
استطيع أن أحصل على المزيد لأدفع لك أيضا بالدولار . . وإذا كنت تريد
زيادة مرتبك بعد أن تزوجت . . فقد أعطيتك زيادة . . وقد أعطيتك أكثر . .
ودائما أعطيتك بالجنيهات لا بالدولارات .

وقال عثمان وهو يبتعد في هدوء :

- شكرا يا ست هانم . . ولأمواخذة . .

وابتعد عنها دون أن يزيد إلحاحا وأصرارا . . وهى متعصبه . . كيف

خطرت له فكرة أن يأخذ أجره بالدولار . . لاشك أن فيوليتا هى التى وضعت
هذه الفكرة في رأسه وحرضته عليها . . إنها وحدها التى تعرف قيمة الدولار
وتحتاج اليه في تعاملها مع الخارج . . ونادت فيوليتا وأخذت تناقشها كأنها
تصب غضبها عليها وتهم أن تضربها . . وفيوليتا لاترد الا بكلمات عابرة
لامعنى لها . . إلى أن صاحت في وجهها

- حذرى عثمان الذى أصبح زوجك من أن يعود الى حديث
الدولارات . . والا حرمتك انت أيضا منها . . فانت اليوم زوجة مصرية وكل
حقوقك لايتعدى الجنيهات المصرية . .

وانتهت الازمة . . وحتى ترضيها . . أبلغت عثمان بانها قررت أن
تعطى زوجها فيوليتا عشرة جنيهات كل شهر علاوة على مرتبتها بالدولارحتى
تغضى احتياجاتها التى تجدها في مصر . . وقالت له ضاحكة :

- حتى لا أعطيها الا لانى اعتبر أن ما أعطيه هو لك . .

كم مضى ؟

شهران . . ثلاثة . . أربعة . . واستيقظت ست البيت من النوم ذات
صباح فلم تجد في البيت لا فيوليتا ولا عثمان . . وجنت وهى تهوّل بحثا
عنهما . . الى أن وجدت خطابا متروكا في مكان ظاهر على المائدة ويحمل
اسمها . . وهو خطاب باللغة الانجليزية كتبته لها فيوليتا . . وهى تعتذر في
كلمات مهذبة عن ترك الخدمة هى وزوجها عثمان . . وقد سافرا للعمل في
السعودية . . وهما وان كانا يقبضان مرتبتهما هناك بالريال السعودى الا ان
من السهل تحويله الى دولارات .

وسقطت منهارة .

ودأبها وهى منهارة تسأول كان غائبا عنها . . كيف استطاعت
فيوليتا أن تخرج من مصر في حين انها تحتفظ بجواز سفرها معها . . كأنها

كانت تحتفظ بها كلها في يدها حتى لا تهرب منها . . وقامت تتروّع في مشيتها بين قطع الاثاث . . وفتحت الدرج الذي تحتفظ فيه بجواز سفر فيوليتا . انه ليس في الدرج . . لقد يسرقته . . وكان من السهل عليها ان تسرق كل شيء . . فقد كانت تثق فيها ومطمئنة اليها . . ولكنها في الواقع لم تسرق الا جواز السفر . لاشيء آخر رغم كثرة ما في ادراجها . ورغم ذلك فكان يجب الا تطمئن اليها . . لا تطمئن الى الطموح الذي يسيطر على كل من يعمل خارج بلده . . والذي قد يدفعه الى الكذب والى السرقة . . والى الهرب . . وقد حاولت ان ترضى طموح فيوليتا بالحب الذي كانت تسبغه عليها . . ولكن لعل فيوليتا لم تكن تؤمن او تعرف الحب . . انها جردت عثمان ايضا من الحب بعد ان تزوجته . . حب البيت الذي تعمل فيه والعائلة التي تعمل معها . . ان طموحها فوق الحب . . طموح ينحصر في كم تكسب . . حتى انها كانت حريصة على الا تهرب من العمل هي وعثمان الا في اوائل ايام الشهر الجديد بعد ان اطمأنت الى انها هي وعثمان قد تسلما المرتب كاملا . .

ورقدت ست البيت على فراشها وهي تقاوم انهيارها . .

انها تستطيع ان تقاوم ضياع فيوليتا منها . .

ولكنها لا تستطيع ان تقاوم ضياع عثمان بعد هذا العمر الطويل الذي قضاه في بيتها ومعها ومع اولادها . . كانه كان يدا تتحرك في كيان كل منهم . .

ولكنها ست بيت قوية . .

وتعتبر عثمان كانه مات . .



أرى أمي معصية في أذنك ..

كانت فريدة قد ذهبت في الصباح إلى حي خان الخليلي كمادتها في كثير من الأيام . . فهي تحب التردد على دكاكين صياغة الحل ودكاكين التحف القديمة التي تعتمد على الصناعة اليدوية وتحسن مهارة يد الصانع المصري من هذه التحف من اعاجيب . . وحي ودكاكين خان الخليلي ليس مخصصا للسياح كما يتصور البعض . . إن أغلبية هذا الزحام من الزبائن كلهم من النساء المصريات . . وبينهن هلاجات وبنات بلد وبنات ذوات وكل منهن معها ما يكفي للشراء . .

وكانت فريدة لا تشتري دائما كلما دهمت الى خان الخليلي . . كانت في الغالب تكتفي بالتمتع بالفرجة على المعروضات . . وقد ذهبت في هذا اليوم دون أن تحدد شيئا تشتريه . . ولكنها رأت وهي في دكان أحد الصاغة قرطا ذهبيا أثار إعجابها . . إنه مرسوم على شكل عدة قلوب ذهبية صغيرة متشابكة في دائرة تتوسطها مجموعة من الفصوص الذهبية الصغيرة جدا كأنها ترمز عن تنهدات هذه القلوب بالحب . .

والنقطة فريدة هذا القرط وعلقته في أذنها ووقعت تنفرج على نفسها امام مرآة الدكان . . وأحسنت كان هذا القرط يعلى حب . . كانه يقول لكل الناس أنها في حالة حب . . تحس وهي تعلقه في أذنها كأنها تعلق حبا لزوجها غلام . . ستشتريه . . قطعاً ستشتريه . . حتى يرى غلام حبه معلقاً في أذنها . .

وقالت للبائع وهي فرحة أنها عثرت على حلم من أحلامها

- منذ متى لديك هذا القرط . انى لم اره لديك من قبل ؟
وقال البائع كأنه يروى لها تاريخا لتحفة عريقة

- انه فى الأصل مصاغ فلاحى . كان منتشرا فى الأرياف منذ سنوات طويلة . . وقد حثنا به الى القاهرة منذ أسابيع فقط لمجرد تجربته . دون أن نكون متأكدين بأن أذواق نساء القاهرة ستفق مع أذواق نساء الريف . ولكننا ماكدنا نعرضه حتى اقبلت عليه نساء القاهرة وانتشر انتشارا واسعا .

وقالت فريدة من خلال فرحتها :

- سأشتريه . . كم ثمنه ؟

وقال البائع بلهافة التجار :

- اننا لسعة انتشاره بين مختلف الطبقات صنعناه من ثلاثة اصناف . صنعناه من المعدن المذهب بثمن اثنين ونصف من الحنيئات . وصنعناه من الفضة المطلية بالذهب بثمن أربعين جنيه . . ثم من الذهب الخالص بثمن مائة وخمسين جنيه . لقد اصبح كأنه شارة شعبية . . وقاطعته فريدة ضاحكة :

- انه شارة الحب .

وقال البائع من خلال ابتسامة التجار :

- أى صنف منه تريدین ؟

وفكرت برهة . . أن هذا القرط سيكون شعار حبها لزوجها علام . . حبها العالى . . ويجب أن يكون شعارا غالبا من الذهب الخالص . . وقالت بانطلاق :

- سأشتري الذهب . . ولكن ليس معى الآن سوى خمسين جنيها وسأعود اليك بالباقي غدا . هل أستطيع أن أخذها اليوم وانت مطمئن الى القدر .

وقال وهو يجمع لها الحلق فى علبة من القطيفة الحمراء

- طبعاً . . طبعاً .

وهو فعلا مطمئن . . فهو يعرفها كزبونة .

* * *

وعادت فريدة الى البيت وحلست أمام المرأة فى انتظار عودة زوجها علام من عمله . وسارت شعرها بأن رفعت حتى يكشف عن أذنيها وعلقت فيها قرط الحب . . وقضت فترة أمام المرأة وهي تبالح فى القرط على أذنيها . لاشك أن زوجها سيظهر من الفرحة عندما يرى قلوب الحب . سيرى نفسه وكأنه معلق فى أذنيها . . حتى لو حاول أن يحتفظ بطبيعته الكتومة الجامدة فى التعبير عن عواطفه . فلن يستطيع عندما يرى الحلق الا أن يطلق فرحته . قد يزغرد فرحا وهو يحتضنها بين ذراعية بعد أن يثير الحلق فيه حبه وحبها . . أو على الأقل قد يبتسم وهو الضنين بابتسامته . ويقبلها ولوقبله من هذه القبلات الشريفة التى عودها عليها

وعاد علام

ووقفت أمامه وبين شعيتها ابتسامة فرحة صامتة فى فرحتها

ولكن علام لم يلمح القرط فى أذنيها . . ولعله لم يلمح ابتسامتها أيضا . وهم أن ينسحب من أمامها ويدخل حجرته ليبدل ثيابه استعدادا للجولس على مائدة الغداء . فجرت وراءه وجذبت من ذراعه ليستدير اليها وهي واقفة أمامه . وقالت محتفظة بابتسامتها وفرحتها

- ألا ترى في شيئا جديدا ..

وقال في دهشة :

- أين هذا الشيء الجديد ؟

وقالت في لهجة كرم

- على أذننى ..

ورفع غلام عينيه الى اذنيها وما كاد يرى القرط حتى تجهم وتهدجت أنفاسه ، ثم قال وهو يبدو وكأنه يقاوم نفسه وقد أصبح صوته محشرجا :

- انه قرط فلاحى :

قالت وهي تحاول أن تثير فيه فرحتها :

- أعلم .. ولكنه اليوم أصبح موضوعة القاهرة .. ألا ترى ما يرمز اليه ..

وقال وقد بدأ صوته يحتد :

- انه يذكرنى بأمى وانت تعلمين انى لا أحتمل ذكر المرحومة أمى وإلا عدت الى البكاء عليها .. ارفعى هذا القرط من أذنك ..

وقالت في دهشة :

- ولكننى اشتريته لأنه يرمز الى الحب الذى يجمعنا .. وهو أيضا يعجبنى ..

وصاح وقد فقد اعصابه :

- أخلعيه .. وأعيديه الى البائع أو أكتفى بالظهور به بين صديقاتك بعيدا عنى .. لا أريد أن أراه .. لا أريد أن أراه

ورفعت فريدة يدها وشددت القرط من فوق أذنيها وهي دهشة من ثورة زوجها الى هذا الحد خيل اليها انه قد أصابه جنون . وقالت في صوت حزين بعد أن ضاعت فرحتها :

- انى لم أدفع ثمنه .. وساعيده غدا ..

وظلت صامئة وهي تساعده في تغيير ملبسه . ثم قالت وهي تحاول ان تكون هادئة :

- على الأقل قل لى ماذا لا يعجبك في هذا القرط ..

وانطلقت عيناه مبجلقتان وقال في حده

- لن أقول لك شيئا ولا أريد أن أسمع شيئا عن موضوع هذا القرط .

ولم يستطع أن ياكل على مائدة الغداء . كان ساهما يتحرك وهو جالس فوق مقعده كأنه يحاول أن يهرب من مطاردة . وقام فحاة وجرى الى الفراش وادعى النوم كمادته بعد الغداء ولكنه لم يكن نائما . وكان يقرب رأسه فوق الوسادة ، وكأنه يطرد ذكرى تكاد تهشمه :

إن هذا القرط سبق وقتل اثنان ..

لقد كان أيامها لا يزال صبيبا في السابعة من عمره .. وكانت العائلة كلها تقيم في القرية وكان لهم فيها دوارا واسعا بجانب العشرة أفدنة التى يملكها والده ويزرعها .. وكانت أمه تضع هذا القرط على أذنيها

دائماً ، ليلاً ونهاراً ، حتى وهي تعمل في الدوار أو في الحقل . . كان القوط يميزها عن باقي نساء القرية . . وتتباهى به . . وكأنها تعلن به أن زوجها رجل مقتدر يعلق الذهب في أذنيها أولعها كانت تؤمن بأنه قوط الحب .

وكانت أمه تعمل أمام الفرن في الدوار تعد أرغفة العيش الفلاحي المرحرح ومعها مسعدة زوجة برهوم ابن جارتهم أم برهوم . . والصبي علام يلعب بجانبها وسقطت فردة من القوط من أذن أمه فوق الحطب المعد لائقائه في الفرن كلما هبطت ناره . . ولم ير علام فردة القوط وهي تسقط من أذن أمه ولكنه رأى مسعدة وهي تتحنى في حركة مفاجئة فوق الحطب وتأخذ بأصابعها شيئاً تخفيه بسرعة في صدرها تحت ثوبها . . ولم يهتم علام بما رآه مستمراً في اللعب . .

الى أن انتهى الخبز وعادت مسعدة الى بيتها . وفجأة اكتشفت أمه ضياع فردة القوط من فوق أذنها . . وأنجنت في لهفة مجبونة تبحث في كل أنحاء غرفة الفرن . وترفع حطب الفرن واحدة بواحدة . . وتتحسس بيدها فوق تراب الأرض وتحت التراب . . انها متأكدة أن القوط سقط من أذنها . . ولكن أين سقط . . وأين اختفى . . وبلغ من جنونها انها أدخلت رأسها وزراعيها داخل الفرن رغم انه كان لا يزال محتفظاً بناره بحثاً عن القوط . .

وعلام لاه عن أمه يلعب بعيداً عنها . . الى أن يأس أمه من العثور على فردة القوط . وسقطت على الأرض تبكي انها لا تبكي القوط وحده ولكنها تبكي أيضاً خوفها من زوجها عندما يعود ولا يرى فردة القوط في أذنها ويعلم بالخبر . . لقد عاش معها كل السنوات والقوط في أذنيها كأنه قطعة من لحمها . .

وعاد أبو علام . . وسمع الصبي أبوه يصيح صياحاً جاداً في وجه أمه وراه كأنه يهم بضرب أمه . . ولو انه لم يضربها في حياته أبداً ثم رأى

أباه ينحنى هو الآخر باحثاً عن القوط حول الفرن وفي كل أنحاء البيت . . وفجأة تذكر الصبي صورة مسعدة وهي تتحنى فجأة فوق الحطب وتلتقط شيئاً تخفيه في صدرها . . واستنتج بذلك أنه وهو يفيض بالذكاء منذ صباه بدليل ما هو فيه الآن بعد أن ترك القرية وأتم تعليمه . . وأصبح من كبار الموظفين . . استنتج أن مسعدة أخذت فردة القوط التي يبحث عنها أبوه وأمه . . وصاح فيها :

.. ان مسعدة أخذته :

والتف الاب والام حول الصبي وعصروه بأسلتيهما كأنهما يحققان معه حتى تغلب عليهما التاكيد بأن مسعدة هي التي أخذت القوط . . سرقته .

وخرجت الأم من الدوار كأنها تجرى الى جارتها أم حمدان . . وانفردت بها وصارحتها بأن مسعدة زوجة ابنها برهوم قد سرق فردة القوط . . وبعد أن روت لها كل الحكاية وطالت المناقشة بينهما . رجتها أم حمدان متوسلة أن تتركها ساعة وتستعود اليها في الدار ومعها فردة القوط . .

واستدعت أم حمدان مسعدة زوجة ابنها وصرخت في وجهها :

.. لم يبق الا أن نصبح لصوصاً ونعيش بين أهل القرية ونحن لصوص . . هات فردة القوط .

وحاولت مسعدة وهي ترتعش أن تنكر . . إنها لم تأخذ شيئاً . ولا تعرف شيئاً . . ولكن حمايتها انهالت عليها ضرباً حتى أخرجت سيخ الفرن وهو مشتمل بالنار وهمت أن تفرزه في صدرها . . لولا أن اعترفت مسعدة . .

إنها أخذت فردة القوط وعادت الى بيتها وأرته لزوجها برهوم فأخذه

منها وأوصاها ألا تنفي السر لأحد حتى ولا لأمه . . وهددها بأن يقتلها لو كشفت السر . . وبرهوم معروف بين أهل القرية بالشراسة والبجاجة . . وإسمه يرتفع مع كل جريمة تقع حول القرية . . ولعله أخذ قطعة الذهب المسروقة ليبيعه في المركز . . ولكن السرقة حدثت اليوم ومنذ ساعات ولا يمكن أن يكون قد مر وقت كاف يستطيع برهوم أن يذهب فيه إلى المركز ويبيع .

واستدعت أم حمدان ابنها برهوم وأجلسته أمامها وحادثته في هدوء وهي تحسب حساب شراسته وأجرامه . . وقالت له أن زوجته مسعدة لم تكشف السر . . ولكن كشفت أم علام وابنها هو الذي شاهد مسعدة وهي تخفي القوط في صدرها . . وعليهم أن يعيدوه الآن إلى أصحابهم . . والا انقلب القرية كلها . .

واستسلم برهوم وهو يزار كالأسد الذي فرت منه فريسته . .
وإعاد القوط المسروق . .



ولم ينس برهوم أن زوجته مسعدة قد كشفت سره رغم تحذيره لها بأنه سيقتلها إذا كشفت . .

هي التي قالت لأمه أنها أعطته القوط المسروق . . كانت تستطيع أن تقصر السرقة على نفسها . . وتقول أن القوط ضاع منها . . وحتى لو استسلمت فقد كان يمكنها أن تستسلم دون ذكر اسمه ودون أن تبلغ أمه أنه أخذ منها القوط المسروق وهددها بالقتل إذا أفشت السر . . وربما كان قد أعاد القوط وهو يدعي أنه وجده مع زوجته مسعدة وأخذه منها غصبا عنها بعد أن ضربها ليؤدبها حتى يبرئ نفسه أمام أهل القرية . .

ولكن الآن أصبح السر مكشوفاً . . والناس تقول أنه هو الذي حرض

زوجته عن السرقة وهو الذي استولى على القوط المسروق . . وأصبحوا يصبقون في وجهه بالشتائم والانتهاكات . . وحتى الأطفال أصبحوا يتجمعون خلفه ويهتفون . . تسرق ليه يا برهوم . . وتفضح أمك يا برهوم . .

اذن يجب أن تقتل مسعدة التي كشفت السر وقضتته . .
وخرج بها في الفجر بحجة أنها تريد زيارة أمها في قريتهم القريبة وكان قد اقنعها فعلاً بأن يأخذها لزيارة أمها . . ولم يبتعد بها عن القرية بل شدها إلى جانب مستور من الحقل وذبحها . . ثم استطاع أن ينقل الحثة ويعود بها إلى البيت ويحفر حفرة في فناءه يدفنها فيها . .

إن برهوم قاتل محترف وهو لم يقتل زوجته في البيت حتى لا يتعرض لصراخاتها التي قد توقظ أمه . . وعاد ودفنها في فناء البيت حتى يتأكد من أنه لا يمكن اكتشاف حثتها . . ولكن أمه وحدها عرفت كل شيء . . لقد استيقظت في الليل على صوت ضربات الفأس في يد برهوم وهو يحفر في الفناء قبر زوجته . . واختفت سريعاً قبل أن يراها ابنها حتى لا يقتلها هي الأخرى ويدفنها بجانب زوجته مسعدة . .

ومضت أيام مسعدة لاتعود إلى القرية . . وقال برهوم أنها غاضبة وتقيم مع أهلها ولا تريد العودة . . وهو لن يعيدها لأنه لا يريد أن يعيش مع لصة سارقة . . وأمه توافق ابنها على مايقول كلما سألها أهل القرية . . ولكنها اصسحت في حالة ذهول . . أنها جالسة القرفصاء دائماً فوق القبر الذي حفره ابنها برهوم . . ولاتتكلم أبداً . .

ولاتنطق بحرف . . وتنام وهي جالسة القرفصاء ولاتتحرك أبداً
وبدأ الناس يقولون عنها أنها أصبحت مجنونة . .

وقوى أهل القرية بعد هذه الأيام بأم مسعدة تأتي إليهم لتزود ابنتها . . وعندما التفت حولها الناس يسألونها . . ألم تكن ابنتك عندك كانت تجيب بأنها لم تترها أبداً منذ شهر ولم تراها أبداً . . وبدأ الناس

يتساعلون ، أين ذهبت مسعدة . . ثم بدأوا يتساعلون . . ماذا فعل بها زوجها برهوم وأين أخاهما . . وأم مسعدة تجلس بجانب أم برهوم ليل نهار وهي لا تكف عن ترديد أين ابنتي . . أين مسعدة . . وأم برهوم صامتة لا تنطق . . ثم فجأة بعد أن إنقضى نهار وليل ثم إنقضى نهار آخر ، انتفضت فجأة من حلستها صارخة :

- هذه هي ابنتك . . مقيمة معنا في البيت . .

ثم التقتلت فأسا وأخذت تحفر في أرض الغناء حتى تكشف القبر وظهرت جثة مسعدة . . وألقت بنفسها فوق الجثة وماتت معها .

وثار اهل القرية كلهم ووجدوا برهوم وانهاالوا عليه ضربا الى ان تسلمه الخفير واحتفظ به الى ان جاء بوليس المركز .

وقدم برهوم الى المحاكمة وأدخل السجن المؤبد مع الاشغال الشاقة

ولكن حتى برهوم لم ينج من الموت لقد كان يقطع صخور الجبل وهو في السجن فسقط على رأسه صخورا ثقيلا قتله في الحال . .

* * *

وكان الصبي علام يتتبع كل هذه الاحداث التي تشهدها القرية وهو في دهول . . انه يحس انه كان السبب في كل ماحدث . . لولا انه أبلغ أمه واباه ان مسعدة هي التي سرقت فردة القرط لما حدث شيء . . انه لم يحس كما يحس الاطفال بأنه كان بطلا أعاد لأمه قرطها من يد اللصوص . . ولكنه كان يحس بأنه كان السبب في كل ماجرى لمسعدة . . لقد كان يحبها كانت أكثر امرأة في القرية تدله وتتحمل شقاوته وعندما علم أنها قتلت وجد نفسه ينزوى تحت الشجرة ويكيى لقد قتلت مسعدة من أجل فردة قرط تتحلى به أمه . . حرام . . والله حرام . . وحتى عندما

دخل برهوم السجن . . وبعد أن قتل هو الآخر . . كان يبكي . . إن برهوم قتل زوجته ثم مات . . من أجل هذا القرط الذي تتحلى به أمه . . حرام . . والله حرام

وأصبح يكره هذا القرط ولا يستطيع أن يراه .

إن هذا القرط قتل اثنين . . قتل مسعدة وزوجها .

ولكنه في أذني أمه دائما . . لا تريد أن ترفعه ولاستطيع الاستغناء عنه . . وهو لا يعرف كيف يتخلص منه . . وقد خطرت على باله مرة أن ينزعه من على أذني أمه وهي نائمة ويلقيه في التربة . . ولكنه لم يجزؤ . . وعود نفسه على الا ينظر الى أذني أمه أبدا . . وبدأ يستريح من هذا القرط عندما كان يترك القرية ويعيش في بيت عمه في طنطا بعد أن كبر ودخل المدرسة الابتدائية ثم الثانوية ثم استراح أكثر عندما أصبح يعيش في القاهرة طالبا في الجامعة . . ولكنه كان لايعود الى القرية الا ويرى القرط في اذني أمه . .

لقد ماتت أمه والقرط في اذنيها

رحمها الله . .

* * *

وقد مضت سنوات طويلة وقد نسي هذا القرط الذي دفعه الى قتل اثنين . . كما نسي كل احداث القرية بعد هجرها وابتعد عنها حتى انه باع العشرة أقدنه التي ورثها عن أبيه فيها . . ولم تعد له من القرية سوى ذكريات لاتخطر على باله الاكلما فاجأت مناسبة تذكره بها

إلى ان جاءت زوجته وفي اذنيها هذا القرط . . نفس القرط الذي دفعه ليقتل اثنين . .

وراسه تتحرك فوق الوسادة بعنف كأنه يريد أن ينزعها من عنقه ليتخلص من ذكريات هذا القرط . . ولكنه يجب أن يقاوم لماذا يستسلم للذكريات خياله وهو طفل بعد أن أصبح رجلا كاملا ناجحا . .

إن هذا القرط لم يقتل مسعدة ولابرهوم . . ماهذا الخيال المجنون . . لقد قتلتها طبيعتهما الشريرة .

وقفز من الفراش وصاح في زوجته فريدة

- أين هذا القرط الذى اشتريته .

وفتحت فريدة الدولاب في هدوء وقدمت له القرط .

وعاد يصبح دون أن يلمسه أو ينظر فيه

- ضعيه على اذنك . .

وعلقت فريدة القرط في اذنيها وهى صامتة .

وعاد علام يقول كأنه يحدث نفسه دون أن ينظر الى القرط في اذنى فريدة :

- انه قرط امى . . وسأرى امى فيك الله يرحمها . .



البحث عن الشخصية الأخرى . .

إنه مقاول عمليات بناء . . يستطيع أن يبني أى شيء . . وليس هو الذى اختار أن يكون مقاولا . . ولقد ولد ووجد نفسه مقاولا مع أميه . . ومنذ كان في الثانية عشرة من عمره وأبوه يدرجه على أعمال المقاولات فعرف كل تفاصيلها وأسرارها . . عرف كيف يدخل في المشروعات الحكومية ، وكيف يدفع لوكيل الوزارة أو لرئيس مجلس الإدارة ، ولهذا وذاك من الموظفين حتى يفوز على باقى المقاولين بالمشروع . . وعرف كيف يشتري أو يستورد المواد التى يحتاج إليها المشروع ، وكيف يدخل مادفعا من أثمانها وتكاليفها في الميزانية بحيث يكسب من ورائها المبالغ الضخمة وكانها عملية قائمة بذاتها لايقوم بها كمقاول ولكن كتاجر شاطر يشتري ويبيع . . وعرف كيف يتعامل مع الانفار الذين يعهد اليهم بعمليات البناء بحيث يخصص لنفسه نسبة من الاجور والأتعاب التى يكسبونها بفضلهم دون أن يتركهم يكتشفون انه كسب بفضلهم شيئا . . كمقاول البناء الشاطر هو أيضا مقاول انفار . . ومهما استعان بصغار مقاولي الانفار الذين يجمعون العمال فهو نفسه مقاول الانفار الرئيسى والكبير عليهم . . وله النصيب الأكبر من مكاسب العملية .

ورغم أن أباه اعترف له منذ صغره بعقريته كمقاول حتى انه كان يتركه يقوم بعمليات خاصة به وهو لايزال في التاسعة عشرة من عمره ورغم ذلك فانه لم يكن يتفاخر أو يتباهى بأنه مقاول ناجح . . ربما لأنه لم يكن يريد أن يعيش كآبيه الذى لايزال يظهر بين الناس بالجبة والقفطان أو بالجلباب البلدى حتى لو كان من قماش السكروته القال . . ويقضى يومه بين العمال داخل العملية التى يقوم بها كمقاول . . ويتكلم كما يتكلمون ولقد يجلس بينهم ليشاركهم اكل العيش والطعمية في فترة الغداء . . انه رهم

تمسكه واقتناعه بالدخل الكبير الذى تحققه مهنة المقاتل إلا أنه لا يريد أن يعيش حياة المقاتلين كما يعيشها أبوه . . بل لا يحب أن يعرف كمقاتل . كان صفة المقاتل لا تشرف صاحبها وترفعه إلى قمة المجتمع ورغم أن عثمان أحمد عثمان جعل للمقاتلين العرب شخصية من أرقى شخصيات المجتمع ، وهو نفسه وصل إلى قمة المجتمع حتى وصل إلى أن يكون وزيراً بل وأن يكون نائباً لرئيس الدولة . وهو محتفظ بصفته كمقاتل ، ويتفاخر باسمه كرئيس شركة المقاتلين العرب إلا أنه لم يتأثر بشخصية عثمان أحمد عثمان كما لم يتأثر بشخصية أبيه حتى لو كان قد ورث عنه عبقريته كمقاتل . .

إنه لا يتكفى بأن يكون معروفاً كرجل واسع الثراء استطاع أن يجمع الملايين عن طريق المقاتلات إنه يريد أن يكون معروفاً ومشهوراً كصاحب موهبة خاصة تبهر الملايين من أفراد الشعب وقد انتابه هذا الإحساس منذ صباه فحاول أن يكون لاعب كرة أشهر لاعب كرة في مصر إلى أن يصبح أشهر لاعب كرة في العالم كله

والتحق ببادئ الزمالة وعاش في عالم الكرة . . وكل أصدقائه ومن يعرفهم من لاعبي الكرة وبدأ التدريبات . ومرت سنوات وهو يتدرب أن يقع تدريبه أحد بأن يضمه إلى فريق النادي ولاحتى اعتباره لاعب كرة . . ولكنه كان سحياً في المساهمة فيما يحتاجه فريق النادي من نفقات وكان مغرماً في تكريم كل اللاعبين كان يقيم لهم كثيراً من الدعوات والحفلات داخل النادي وفي المباريات العامة كان هو الذى يعد جمهور المهلئين للنادي ، ويستاجر السيارات التى تنقلهم إلى الملعب ، وتعود بهم لتطوف بهم الشوارع مهلئين إذا تحقق الفوز للزمالك بل إنه دفع مرة ثمن شراء ملابس لعب جديدة لكل فرق النادي وأصبح مشهوراً بين كل أعضاء النادي . . وكلهم يحبونه ويحاولون دائماً إرضاءه وتحقيق مطالبه . . ولكنه حب لا يمكن أن يصل إلى حد الاعتراف به كلاعب كرة وضمه إلى فريق النادي . إنهم لا يحسونه كلاعب ، ولكنهم يحبونه كشباب

ثرى يمتع النادي بثرائه ولم يكونوا يعرفون أنه هو نفسه مقاتل . فقد كان يخفى عنهم صفته كمقاتل ولا يحدثهم أبداً عن العمليات التى يقوم بها أو يشترك فيها . . ولكنهم كانوا يعرفون عنه أنه ابن مقاتل ثرى إنه لم يستطع أن يحقق أمله في أن يكون لاعب كرة معروفاً مشهوراً ولم يستطع أيضاً أن يتحرر من انتسابه إلى شخصية أبيه المقاتل . إلى أن بدأت أعلامه تدوب حتى ارتباطه بنادي الزمالك بدأ يضعف حتى أصبح وكأنه يهرب منه .

وكان من طبيعة مهدي عبد الصمد التى كونها في نفسه منذ الصغر هي إصراره على استمراره في الدراسة حتى نهايتها أنه ليس في حاجة إلى شهادة مدرسية أو جامعية تعينه على التخصص في مهنته كمقاتل لقد اكتسب من أبيه كل تفاصيل وأسرار المهنة حتى حقق عبقرية كمقاتل دون حاجة إلى دراسة ولكنه إذا أراد أن يعيش العالم الآخر بعيداً عن دنيا المقاتلات فهو عالم لا يعترف بالعبقرية إلا لمن يحمل شهادة علمية وكان ينجح دائماً في كل الامتحانات المدرسية ، وفي بساطة دون أن يحتاج للتدريج للمذاكرة . . إنه يذاكر كأنه يتفرج على مائ الكتب أو يتفرج على المدرسين وذاكره تكفيه الفرحة لينجح به في أى امتحان . وعندما انتهى من دراسته الثانوية استمر في الدراسة الجامعية . ولكنه لم يلتحق بكلية يستكمل فيها ما تحتاج إليه مهنته كمقاتل من علم أو على الأقل من معلومات . كلية الهندسة أو كلية التجارة . ولكنه اختار أبعد دراسة عن مهنته والتحق بكلية الآداب . أنها في تقديره أقوى الكليات في فتح أبواب الشهرة . قد يشتهر كعالم أدبي كما اشتهر طه حسين وقد يشتهر كتوفيق الحكيم الذى لم يعرف عنه أنه رجل قانون رغم أنه درس في كلية الحقوق ولم يشتهر إلا بعد أن درس الأدب في باريس وقد يصل إلى أن يكون فناناً إذاعياً أو تليفزيونياً حتى يصل إلى السيطرة على الإذاعة أو التليفزيون كما وصلت سامية صادق . .

وقد عاش مهدي عبد الصمد في الجامعة كعادته بفصل مصلاته تماماً

بين الدنيتين اللتين يعيشهما . دنيا المقاولات ، والدنيا الجامعية فهو يتردد كل يوم على مكتب المقاولات دون أن يكتشف زملاؤه في الجامعة هذا المكتب أو يدعوا أو حتى يسمح لأحد منهم بلقاؤه هناك . إنه لا يلتقى في مكتب المقاولات إلا بمن يحتاج إليه عمله كمقاول . ثم يذهب إلى الجامعة ، وكأنه مجرد طالب ، ولا حديث له بين زملائه إلا كطالب لا يحاول أن يتباهى بينهم بأنه يتميز عنهم كمصاحب مهنة عبقري يكسب أموالا ضخمة .

وقد عرف في الجامعة شلة من الطلبة تدمن لعب الشطرنج ويدا يسائل نفسه لماذا لا يلعب الشطرنج . إن الانسان يخطر في الحياة وكأنه يلعب الشطرنج . . وعالم المقاولات كأنه عالم يقوم على مباريات في الشطرنج . . والمقاول الذي يستولى على العملية ، أو على الصفقة ، فكأنه يصبح في وجه بقية المقاولين . . كش . . ملك . . والاستيلاء على العملية بين المقاولين هي كالأستيلاء على الملك الذي يحمي الخصم في لعب الشطرنج أى أن كل من ينجح في الحياة أو في المقاولات يمكن أن ينجح في لعب الشطرنج . ولاشك أنه ناجح وأنه عبقري ويستطيع بهيئته أن يهزم كل لاعبي الشطرنج في المباريات التي تقام في مصر . . ويشتهر . . بل قد يستطيع أن يتقدم إلى المباريات العالمية ويعوز على هذا اللاعب الروسى الذى يفوز دائما على كل لاعبي شطرنج العالم . .

وقضى سنوات وهو يقضى كل أوقات فراغه في لعب الشطرنج ، بل أنه كان يقرأ كتباً عالمية تحمل كل أسرار اللعبة ولكنه ظل دائما لاعبا عاديا قد يهزم بعض اللاعبين ولكن الأغلبية تهزمه وخرج من لعبة الشطرنج بعد أن تخرج من الجامعة حاملا لليسانس . .

ولم يخطر على باله أن يبحث عن وظيفة بعد تخرجه ولا أن يحاول الاستفادة من الليسانس الذى حصل عليه في احتراف أى مهنة أخرى . وأصبح مضطرا أن يجاهر بأنه مقاول ولكنه ظل كما هو يفصل بين

حياته في دنيا المقاولات . . وحياته في الدنيا التى يبحث فيها عن شخصية تعرف وتشتهر كشخصية عامة . . ويتمنى أن تكون شخصية فنان وزوجة أبوه ابنة مقاول آخر . . ولم يكن يتخلى مثل هذا الزواج . . . كان يتمنى أن تكون زوجته ابنة رجل مشهور في الحياة العامة أو تكون هي نفسها مشهورة . . ولكنه كان مضطرا إلى الاستسلام لأبيه . . فقد كان المقاول الآخر والد زوجته قد فاز بعمية مقاولات كبيرة منتصرا على أبيه الذى كان يحاول أن يهزم بنفس العملية . ثم أراد أبوه أن يشاركه في هذه العملية . . فتقدم طالبا ابنته لابنه حركة من حركات لعبة الشطرنج

والواقع أن وضع أبيه كمقاول بدا يضعف . وبدأ الباب الواسع يضيق في وجهه . . ربما لأنه شاخ ولم يعد يتحمل ثقل كل هذه المسؤوليات . . وكان يجب أن يتحرك مهدى عند الصمد وحده حتى يعيد بناء القوة التى ضعفت قوته كمقاول فأحد روحته وسافر إلى البلاد العربية . واستطاع بسرعة أن يفوز بعملية في كل بلد مر به واستطاع خلال سنوات قليلة عابرة أن يجمع الملايين

ولم يتغير . . كان يقضى يومه في مجال عمله كمقاول ، ثم يعود إلى البيت قبل أن يحل المساء ويجلس بعيدا عن روحته يفكر في الشخصية الأخرى التى يريد لها لنفسه ويعضلها شخصية فنان . إن الفن هو الطريق الواسع السهل لبناء الشخصية العامة .

ووجد نفسه يبدأ في كتابة الشعر والزجل . . ربما لأن الحياة وهو مهاجر وراء عمله في البلاد العربية ليس فيها مجتمع مفتوح لكل الفن إن أقوى فن في هذا المجتمع لا يزال هو الشعر ولعله تأثر بهذا المجتمع فبدأ يكتب الشعر . . وإن كان لا يكتب شعرا ولا حتى مجرد زجل . . أنه يكتب وكل ما في خياله أنه يكتب أغنية لا شك أنه يملك موهبة كتابة الأغاني فهو منذ صباه وهو يحفظ كل كلمات الأغاني التى يسمعها ويتذوقها وقد يصل به هذا التذوق إلى أن يكتب مثلها بل وأرقى من مستواها

وكتب عشرات من الاغاني . . وكان يتصور مع كل أغنية المطرب او المطربة التي ستغنيها . بل كتب اناشيد وطنية يغنيها الشعب كله . . وكان يحتفظ بما يكتب في درج مكتبه في انتظار أن يعود الى مصر . إنه لم يفكر أبدا في الا يعود الى مصر . . أى أن يهاجر ويركز كل عمله في الخارج . لقد ترك مصر سنوات ليجمع رأس المال الذي يستند اليه ، والذي كان قد ضعف فعلا في أواخر أيام أبيه . . وقد استطاع أن يجمع من الخارج رأس مال ضخم . . جمع الملايين . . ولكن مالا يعرفه صغار المقاولين والأغنياء منهم هو أن استغلال رأس المال داخل مصر أسهل ويدر أرباحا أكثر من استغلاله في الخارج . . المهم أن يكون معك هذا الرأس مال . . . وسيعود إلى مصر لاستغلاله في داخلها . .

وقد أرسل زوجته وولديه الى مصر وسافر وحده الى أوروبا مارا بسويسرا وفرنسا وإنجلترا قبل أن يعود الى مصر . ان رؤوس الاموال الضخمة التي جمعها يحتفظ بها في بنوك أوروبا . وليس له في مصر إلا ما يحتاج اليه من رأس مال . وهناك عشرات الطرق للتعامل مع رأس ماله الموضوع في أوروبا وهو مقيم في مصر . وكان وهو في جنيف - في سويسرا - يمر على صالات ألعاب القمار لمجرد الفرجة . إنه لم يسبق له أن لعب القمار بأدمان او يتعمد السعى إلى المكاسب الضخمة . . انما كان يلعب مع الأصدقاء أحيانا لمجرد الضحك والتسلية . وتعلم لعبة الكرنكان واليوكر والشايب منذ صغره لمجرد التسلية . . ولكنه وهو في جنيف يطوف بصالات القمار بدأ ينتابه احساس بأنه يستطيع أن يكسب كل هؤلاء اللاعبين . . لماذا لا يجلس بينهم ويتحداهم بعبقريته . انه دائما يكسب في حياته . فلماذا لا يكسب في القمار . وهو يرى أنهم يلعبون بمبالغ ضخمة قد تتعدى الآلاف وقد تصل الى الملايين . . ولكن لا يهم . ان لديه ما يقامره به على أى مبلغ . . وبدأ يلعب . . لعب الروليت . . واليوكر . . وعشرات من ألعاب القمار . . بل انه تعلم لعبة البريدج . . إنها لعبة العقول العالمية . فلماذا لا يثق في أن عقله في مستوى هذه العقول العالمية ويستطيع

أن يهزمها وينتصر حتى على عمر الشريف ويصبح أشهر منه عالميا لا في التمثيل السينمائي ولكن في لعبة البريدج . .

ولعب كل أنواع القمار وخسر في كل اللعاب حتى أصبح يستقبل كما يستقبل أصحاب أيار البترول . . مغفل ثرى . . كم خسر . . ربما أكثر من مائتي ألف دولار . . تكاد تقترب خسارته على الملايين . . وبدأ يبتعد عن لعب القمار بعد أن اقتنع نفسه انها لعبة تقوم على الحظ لا على عبقرية الذكاء . . وهو لا يكسب الا بذكائه لا بالاستسلام للحظ . ولا يهتم ما خسره من الآلاف الدولارات . . انه يستطيع أن يعوضها بعملية واحدة يقوم بها بعد أن يعود الى مصر . .

وفعلا . . كانت أول عملية مقاولات وصل إليها بعد أن عاد إلى مصر ميزانيتها خمسة ملايين جنيه يأخذها من الحكومة . من أموال الدولة وهي ميزانية توضع على أسس مدروسة . ثلثها هو ما تتكلفه العملية كلها . . والثلث الثانى يدفع تكاليف التعامل مع المسؤولين كبيرهم وصغيرهم . . أى تدفع كرشاوى . . والثلث الباقي الحاصل له لقد استرد بعملية واحدة أضعاف ما خسره في صالات القمار

ويعيش كما تعود . . كل نهاره يعمل كمقاول ولا يرى الا من يحتاج اليهم عمله . . وابتداء من غروب الشمس يعيش البحث عن الشخصية العامة المشهورة . . خصوصا إذا كانت شخصية الفنان . . وقد عاد الى مصر وأهم ما يشغله هو بناء شخصية الشاعر كاتب الاعلى . ولكن كيف يصل بالأغاني التي كتبها الى هذه الشخصية . كيف يصل الى وضع أغانيه على لسان المطربين والمطربات ويجرك الملحنين لوصفها في نغمات الموسيقى وكانهم وهم يعزفون أغانيه ويفنونها يعزفون ويغنون له

إنه يعرف الأستاذ باهر مصطفى أشهر كاتب أغاني باللغة العربية في العالم العربى كله . . لقد التقى به مرات في الليالى التي يجمع فيها كبار الأدباء والفنانين . . وقد التقى بالأستاذ باهر وقال له كأنه يطلعه على سر أنه

كتب مجموعة من الأجزاء يعتقد أنها يمكن أن تكون أغنيات ، ولكنه لا يدري كيف يعرضها على المطربين وعلى الملحنين . وكيف يختار بينهم . ويريد منه أن يطلع عليه ويفتح له الطريق .

ورد الأستاذ باهر وهو يرفع الكأس عن شفثيه :

٩ - إن كل مطرب أو مطربة لها لون خاص من الأغاني ، ويجب أن أقرأ أجزائك أو أسمعها لي حتى أقول لك من تختار لتعرضها عليه . .

واعتذر مهدي عن قراءة أجزاله له . . أقنع نفسه أنه يستطيع أن يشعر ولكنه لا يستطيع أن يلقي الشعر . كما كان المرحوم أحمد شوقي . . وجمع كل الأغاني التي كتبها وأعطاهم مكتوبة للأستاذ باهر حتى يراجعها . . وكان يدعوهم كل ليلة تقريبا ويوفر له كل ما يوفر له سعادته ونشوته في لياليه . . ولكن الليالي تمر ، والأستاذ باهر يعتذر له بأنه لم يقرأ بعد أجزاله . . وقد تعمد مهدي بحكم معرفته باحتياجات السوق أن يقدم للأستاذ باهر كثيرا من الهدايا . . أن سوق الفن لا يختلف في التعامل معه عن سوق المقاولات . . ولكن الأستاذ باهر لا يزال يعتذر . . إلى أن قال له في ليلة :

- أني اعرف أنك مشغول دائما بانتاج فنك . . وهي مشغولية لانتيج لك الوقت لتقرأ أجزالي . ولو تركت تفرغك لانتاجك الفني للاهتمام بانتاجي أنا فإن ذلك قد يكلفك خسائر في رزقك . هاسمح لي أن أعوضك عما يمكن أن تخسره . ثم مديده وناول الأستاذ باهر مجموعة من أوراق النقد . ألف جنيه كاملة . وفي بساطة أخذ باهر المبلغ وهو يعد أوراق النقد ، ثم قال من خلال ضحكاته :

- يادوبك ثمن سطر واحد من أغنية تخطر على بالي .

وبعد يومين جاء الأستاذ باهر يقول له وهو ينتظر اليه في اشفاق مع ابتسامة كأنها ابتسامة ساخرة :

- إن كلماتك تعبر عن مواضيع رائعة ، ولكن يدقها كل ما يتطلبه الشعر أو الزجل أو الأغنية من أوزان ، بل وأيضا من حروف تتم بها الكلمات . .

وقال مهدي فوراً وبدون أن يناقشه فيما قاله كأنه يعترف فعلاً بأنه لا يعرف شيئاً عن الأوزان :

- كن أستاذي وصحح لي أوزاني

وقال الأستاذ باهر ضاحكاً :

- قد أكون أستاذاً في إطلاق أشعاري ، ولكن لم أكن أبداً أستاذاً في تصحيح أشعار الغير . .

وقال مهدي في استعدهاء :

- لاتعتبرني من الغير . . أنا أصدقاء . . وكل صديق أستاذ على صديقه . . أنا أستاذك مثلاً في المقاولات وأنت أستاذي في الشعر . ولكن لن تكون أستاذاً مجانياً ، كما أنني لا يمكن أن أبني لك بيتاً مجاناً . . وكل تحب له ثمنه .

ثم قام من جانبه بسرعة ، وعاد اليه يحمل مبلغ الفين من الجنيهات . . وقال مبتسماً في رجاء وهو يناوله أوراق النقد

- صحح لي ولو أغنية واحدة تخارها مما كتبته . .

وقال باهر ضاحكاً :

- كأنك تغريني بأن أصحح لك كل ما كتبته . .

ومر أكثر من أسبوع وعاد اليه باهر وجلس أمامه يلقي الأغنية التي أعدها له . . ومهدي مبهوراً . . دهشاً . . حائراً . . أن كل الكلمات التي

يسمعه ليست كلماته . . وكل الموضوع الذي تدور حوله الأغنية ليس له علاقة بأى موضوع كتبه . . وقال فى حيرة :

- هل هذا هو شعري بعد التصحيح ؟

وقال باهر وقد بدأ يضحك :

- إنه من وحى كلماتك . .

ولم يرد مهدى . . انها لايمكن أن تكون حتى من وحى كلماته ولكنه مد يده ليأخذ من باهر الورقة التي كتب فيها كلماته ولكن باهر ظل محتفظا بالورقة قائلا :

- كاني كتبت أغنية جديدة لك

وقال مهدى وقد بدأ ينظر إلى باهر كأنه يتفق معه على عملية مقاولات :

- كم تأخذ ثمننا للأغنية ؟

وقال باهر بلا مبالاة :

- هذا يعتمد على من يشتريها . . كم يستطيع أن يدفع . . بل إنى أحيانا أعطى أشعاري مجانا ليغنيها مطرب حديد لايمك ما يدفعه . .

وظل مهدى محققا في وجه باهر . . لاشك أنه يعلم أنه مقاول ثرى ، وهو يعامله كأنه مقاول فن يتعامل مع زبون ثرى كما يتعامل هو مع الاثرياء . . انه يستطيع أن يقول لباهر ببساطة إنه عدل عن احتياجه لتصحيح ما يكتبه . . انها كانت مجرد لعبة يتسلل بها ، وأنه لايريد هذه الأغنية . . ولكنه أحس بارتباطه بالمشروع الذي بدأ فيه . . مشروع أن تكون له شخصية كاتب الأغاني المشهور . .

وقام صامتا وابتعد فى داخل البيت وعاد يحمل ألفين من

الجنهيات . انه يكون بذلك قد دمع خمسة آلاف جنيه ثمننا لهذه الأغنية التي صححها له باهر لايمكن أن يكون ما يباله من بيع أغانيه أكثر من ذلك . . وأخذ باهر المبلغ بلا فرحة وبلا كلمة شكر ولوى شفتيه كأنه يعطن خيبة أمله . .

وقال مهدى كأنه يبدأ الخطوة التالية

- أى مطرب ترشحه لمعرض عليه هذه الأغنية ليغنيها .

وقال باهر فى برود ، وكأنه لايريد أن ينزل إلى هذا المستوى

- إنى أعترض بفسى ، ولا أعرض الأغاني على أحد ، بل يجب أن يأتي إلى المطربون ليستجدوني فانتظر إلى أن يأتوا إنى وأختار بينهم وطبعاً ستعرف من أختاره

بعد أسابيع قال له باهر :

- لقد اخترت المطربة أنعام لتغنيها

وفرح مهدى . . ان المطربة أنعام ليست المطربة الاولى فى مصر ، ولكنها مطربة معروفة لها جمهورها . . وبعد حديث طويل سأل باهر

- هل اتفقت معها على الثمن الذى تدفعه ؟

وقال باهر وهو ينظر إليه بامتعاض

- أى ثمن ؟

ورد مهدى كأنه يلومه :

- ثمن الكلمات . . حق مؤلف الأغنية .

وقال باهر كأنه يتهمه بالجهل .

- اننا لاناخذ ثمننا من المطربين والمطربات انما نكتفى بحق الاداء العلى الذى يعود اليها . ومحمد عبد الوهاب نفسه لايمد يده إلى أى مطرب أو مطربة يلحن لها . . ويكتفى بالآلاف التى تعود عليه من حق الاداء العلى . . وإذا كنت أنت قد دفعت لى أتعاين نظير اعداد هذه الاغنية فقد قبلتها منك لأنك لست مطربا ، ولا اعرف كيف ستستغل كلماتى حتى اشاركك فيها . .

واستسلم مهدى ثم قال :

- ولكنى لا أعرف الست أنعام .

وقال باهر فى برود :

- سأعرفك بها . .

وبعد أيام حدد له موعدا ليزورا معا المطربة أنعام . . واهتم مهدى بهذه الزيارة . . واختار أشيك بدلة ليرتديها . . لقد كان يتعمد دائما أن يختار الفخم وأشيك البدل والقمصان والكرفانات خلال جولاته فى أوروبا حتى يعرف يأنه أوجه وأشيك رجل مصرى . . بل أنه اشترى مرة زيا مخصصا للعب الجولف رغم أنه لايلعب الجولف لمجرد أنه زى غال أنيق . . ربما كان يعتمد أن يتغلب على عقده النفسية تجاه أبيه الذى لايزال يظهر بالجنة والقبطان . . والجلابية الحرير . . يريد أن يقول للناس أن المقاول يمكن أن يكون من الوجها . .

وقال الأستاذ باهر وهو يقدمه لأنعام :

- أن له الفضل فى كتابة هذه الاغنية . .

انه لم يقل أنه مؤلف أو صاحب الاعنية . . وقد استقبلته أنعام فى نوع من التعالى . . اعتبرته مجرد معجب من المعجبين بأغانيها . . وكانت

وهى تتحدث عن الاغنية توجه حديثها كله إلى باهر وتتداول معه الكلمات وتحكى له عن الملحن الذى اختارته

وقد حاول بعد ذلك أن يوثق علاقاته بأنعام . . علاقة عمل . . ولكنها دائما متعالية تتجاهله . . وعندما قال لها مرة أنه مؤلف هذه الاغنية ضحكت كأنها تسخر من تفاهته . . وقد قدم لها كثير من الهدايا الغالية . . مرة أرسل لها سجادة عجمي . . ومرة أرسل لها خاتما يحمل فصا من الماس . . وكل ما استفاده هو أنها أصبحت أكثر ترحيبا به مع احتفاظها بالتعالى عليه . . وقالت له مرة

- متى أحمى لك حفلة . . ألا تقيم حفلات فى بيتك ؟

كأنها تريد أن ترد له هداياه بالترع له باقامة حفلة تغنى له فيها . . وقد فكر فعلا فى اقامة حفلة كبيرة فى بيته ولو أنه كان يتعمد دائما أن يبعد حياته الاجتماعية عن بيته . . يبعدها عن روجته المتاحرة إنة المقاول . . ولكن قبل أن يحدد موعدا لاقامة هذا الحفل اديعت الاغنية . . ولكنه فوجئ وهى تقدم فى الاذاعة بإعلان أنها اغنية من كلمات الأستاذ باهر مصطفى . . أن اسمه لم يذكر مع أغنيته .

واندفع فى جنون المقتاظ يبحث عن باهر . . انه منذ أسابيع وهو متباعد عنه كأنه يهرب منه . . ولكنه استطاع أن يجده ويصرح فى وجهه بالتليفون :

- أين اسمى مع أغنيتى ؟

وقال باهر فى برود .

- لقد الححت على أنعام أن تضع اسمك ، ولكنها أصرت على الرفض . . انها تقول أن الاغنية كلها من كلماتى التى يعرفها الجمهور ، ولايمكن أن يصدق أنها كلمات شاعر آخر . . ثم أنها تريد أن تعتمد على

أبسم شاعر معروف مشهور . والحقيقة انى وجدت انى استطيع ان ابيع
اى شئ إلا ان ابيع اسمى من فوق كلمات أشعارى . ولكن لتجرب أغنية
أخرى لعل استطيع ان أضح عليها اسمك .

وصاح مهدي :

لأ . . لا أريد ان أرى وجهك . .

والقى سماعة التليفون كأنه يشطب املا من أماله

ومضت أيام وهو يفتاظ من فشله . ثم بدأ يهدأ . . لايهم ما أنفقه
على هذه الهواية التي طرأت عليه . انفق الآلاف ولكن الحمد لله . لقد
وصل إلى عملية مقاولات جديدة تدور عليه الملايين . ثم ربما كان الله يرعاه
وهو يحرمه من نشر اسمه ككاتب أغاني . . هذا في صالحه . . فان الناس
كان لا يمكن ان تقدروه كمقاول ، وهو يكتب الأغاني . ان الفن لا يدخل في
تقدير رجال الأعمال . .

ولكن طبيعته عادت تلج عليه ان يكون صاحب شخصية عامة
مشهورة . . شخصية فنان أو اديب . . وبدأ يسائل نفسه . . لماذا لا يكون
كاتباً . . كاتب قصة . . إنه منذ صباه وهو يهوى قراءة القصص ويعيش
كله فيما يقرأ حتى انه كان تلقائيا يحفظ بعضها كلمة كلمة خصوصا
القصص البوليسية كقصص « روكامبول » و « أرسين لوبين » و « الفرسان
الثلاثة » . وله في الحياة الواسعة التي عاشها وطاف خلالها العالم
عشرات الاحداث التي شهدا ويمكن ان يرويها في قصص . ثم إن كتابة
القصة ليست في حاجة الى دراسة الموازين أو الارتباط بالقافية ككتابة
الشعر . . أى أنه يستطيع ان يكتب قصة دون ان يحتاج لمن يراجعها
ويصححها له . .

وبدا يقضى كل اوقات فراغه في كتابة قصة . وكانت قصة
بوليسية . ومضت شهور ، وهو لا يزال يكتب فيها . وبعد ان انتهى منها
استطاع ان يتعرف على الأستاذ ابراهيم المرجوشي الناشر وصاحب دار
المستقبل للطباعة . وقد أمضى فترة وهو يحاول ان يقيم صداقة خاصة مع
الأستاذ ابراهيم بكثرة السهرات المرحية التي يدعوه إليها . انه كرجل
أعمال يعلم انه يجب اولا ان يقيم صداقة خاصة مع من تحتاج اليه حتى
يسهل بعد ذلك التعامل معه

وبعد ان توطدت صداقته بالأستاذ ابراهيم . . عرض عليه القصة
التي كتبها ، وطلب منه ان يطبعها وينشرها ويوزعها له . ووعده ابراهيم
واخذ منه أوراق القصة . وإن كان قد موجه به من مهدي يكتب القصة
رغم انه كان يعتمد اطالة الحديث معه عن الأدب والأدباء

وبعد أيام قال له الأستاذ ابراهيم وهو يبسم له « بنسامة معتملة كانه
ينافقه

- لقد قرأت القصة . . انها فعلا قصة معتدة . . ولكنى في الواقع
لا استطيع ان أطبعها لك في كتاب . ماننا لاستطيع ان نطبع الاكتب
الكتاب المشهورين حتى لو كانت كتبنا لقصص تافهة . ولكن شهرة
الكاتب تضمن لنا على الاقل استرداد قيمة التكاليف والا تكبدنا خسائر
ضخمة . . فأنت تعلم مدى ارتفاع أسعار الورق والحبر وأجور عمال
الطباعة وقيمة استهلاك الآلات . .

وقال مهدي وهو ينظر الى ابراهيم في استجداء

- وماذا افعل وأنا أريد طبع قصتي في كتاب ؟

وقال ابراهيم في بساطة

- تحمل المسؤولية وحدك . . على الاقل مسؤولية الكتاب الاول

وقال مهدي في إلحاح :

- وكيف أتحمل هذه المسؤولية ..

وقال ابراهيم وهو ينظر إليه في اشفاق :

- تدفع قيمة تكاليف الطبع بما فيها ثمن الورق ..

وقال مهدي فوراً :

- مستعد ..

وقال ابراهيم وهو لا يزال مشفقاً عليه :

- وتدفع كل المبلغ مقدماً ..

وصاح مهدي :

- مستعد ..

وقال ابراهيم وقد بدأت لهجته ترن كلهجة من يعقد صفقة

- كم نسخة تريد أن تطبع من الكتاب ؟

وفكر مهدي برهة ثم انطلق في حماس كأنه يتباهى بنفسه :

- عشرة الاف نسخة .

ولم يقل ابراهيم أن المفروض أن يطبع من الكتاب الجديد ألف أو ألفا نسخة ، فإذا تم توزيعها يطبع منها أكثر في الطبعة الثانية .. ولكنه شد ورقة من أمامه ، وأخذ يسجل عليها بضعة أرقام ثم قال :

- ستضطر أن تدفع مقدماً عشرة آلاف جنيه ، وإذا زادت التكاليف فستدفع طبعاً فأننا لانستطيع أن نتنبأ بالأسعار مقدماً .

وابتلع مهدي ريقه كأنه يهضم المفاجأة ، وكأنه لم يكن ينتظر أن يرتفع المبلغ الذي يدفعه إلى هذا الحد ، ثم قال بصوت خافت :

- سادفع ..

وطبع الكتاب بعد أن اختار مهدي الأ يضع اسمه عليه .. أقنع نفسه بأن يختبئ حتى لا يعلن صفته ككاتب قصة بجانب صفته كمقاول لم لا .. أن محمد حسين هيكل باشا كتب قصة « زينب » دون أن يضع عليها اسمه حرصاً على مركزه كرجل سياسة ولكنه سيعرف بقصته كما عرف هيكل باشا .. وصدر الكتاب مكتوباً على غلافه بحروف عريضة بقلم الكاتب الكبير « ابن زمانه » . سيعرف الناس قريباً أن ابن زمانه هو مهدي عبد الصمد ..

وقال له الأستاذ الناشر الأستاذ ابراهيم المرجوشي وهما يتحادثان معا في موضوع توزيع الكتاب :

- الحقيقة أنها مسئولية معقدة فإن المكتبات ترفض توزيع كتب من تأليف كتاب غير معروفين لأنها تكلف مصاريف التخزين والعرض والاعلان دون أن يطمئنوا إلى كسب ولا حتى إلى استرداد النفقات

واقاطعه مهدي كأنه يعرف مقدماً ما سينتهي إليه هذا الحديث :

- كم تبلغ تكاليف التوزيع والاعلان ..

وشد الأستاذ ابراهيم ورقة من أمامه دون أن يتكلم ، وأخذ يكتب بضعة أرقام إلى أن قال :

- خمسة الاف حنيه على الأقل ..

ودفع مهدي ..

وقد مرت مدة أصبح بعدها يرى كتابه معروضا وراء زجاج المكتبات . . . وقرأ اعلانات صغيرة في بعض الصحف عن قصة الكاتب الكبير « ابن زمانه » . . . ويتصل بالاستاذ ابراهيم بين وقت وآخر يسأله عن عدد النسخ التي بيعت . . . ومرت شهور قبل أن يقول له :

« بيعت نسخة . . . »

ثم شهور أخرى قبل أن يقول له :

« بيعت نسخة ثانية . . . »

وكان قد أخذ لنفسه مائة نسخة وزعها على اصدقائه ومعارفه كهدايا مجانية . . . ثم أخذ مائة نسخة أخرى وزعها أيضا مجانا . . . ولكن الذين يوزع عليهم الهدايا لا يتحدثون عن القصة إلا إذا دفعهم إلى ابداء رأيهم فيها . . . وبعضهم يعتذر بأنه لم يقرأها بعد وبعضهم يبدو منافقا منتهى النفاق فيما بيديه من رأى . . .

ومضت شهور طويلة دون أن يوزع كتابه أو يشتهر به . . . وبدأ اليأس يرحف عليه حتى قرر ألا يكون كاتب قصة ولا كاتب أى كتاب . . . وعندما قال له الأستاذ الناشر أنه مضطر أن يجدد دفع مصاريف التوزيع صرخ في وجهه :

« كل من يحتفظون بنسخ من هذا الكتاب من حقهم أن يحرقوها أو يبيعوها كأوراق دشت لصناعة القراطيس . . . »

انه لم يفكر حتى في جمع النسخ والاحتفاظ بها إحتراما لها . . . ولايهم ما أنفقه ليكون كاتب قصة . . . إن عمليات المقاولات تزاد نجاحا . . . وفيها العوض . . .

إلى أن عرف المثلة السينمائية متار . . .

عرفها في إحدى السهرات التي يقضيها لأهل الفن والأدب . . . وقد جاءت مع صديق من الأدباء ولم يبهز لمجرد تشریفها له فهي في الواقع ليست نجمة سينمائية مشهورة ولكنها معروفة . . . ولم تظهر حتى اليوم في افلام الا في الأدوار الثانوية وأحيانا الأدوار الثالثة . . . ولكنه بهز بها هي نفسها منذ رآها . . . انها تملك هذا النوع من الانوثة والجمال الذي يجذبه دائما . . . وشخصيتها تجمع بين الجدية والوقار حتى انها تستطيع أن تدخل في مناقشات فنية جادة تبدو فيها كأنها نجمة براققة من نجوم الفن وعالمة من علماء الأدب . . . ولاشك انها قرأت كثيرا وتثقف نفسها ثقافة ممتازة . . . ثم عندما تتفرغ لآلئيتها تكون من أقوى النساء إثارة وخبرة في الارتفاع بالرجل إلى منتهى متعته كأنها ترتفع به إلى السماء وتدخله معها إلى الجنة . . . لعل شخصيتها هي نفس شخصيته . . . فهو أيضا في منتهى الجدية بالنسبة لعمله كمقاول . . . وفي منتهى التفرغ للبحث عن متعته في حياته الخاصة . . .

وتجاوبا وتفاعما منذ اللقاء الأول . . . وأصبح يقضى كل لياليه معها في بيتها . . . وأصبحت هي التي تقيم السهرات التي تجمع الأدباء والفنانين في بيته الخاص الذي يسميه بيت الفن . . . ولم يكن يدفع لها ثمنا لكل هذه الليالي التي تعطيلها له . . . ولكنه عرف بالصدفة ودون أن تتعمد أن تطلب منه أنها مديونة وأصبحت مهددة بالحجز عليها . . . فتحاليل عليها حتى قبلت أن يدفع عنها ديونها . . . ودفع خمسين ألف جنيه . . . هذا أقل ما يفرضه الواجب عليه بعد أن أصبح رجلها . . . وكان أخوها يحاول أن يسافر إلى أمريكا ليتم دراسته . . . ولكنه لايجد دولار له دراسته . . . وأخته متحسرة عليه . . . فتبرع له بخمسة آلاف دولار حتى يستطيع أن يتعلم في أمريكا . . . ثم أن الشقة التي تقيم فيها منار ويقضى فيها لياليه معها شقة متواضعة لاثلثيق بها ولا تعجبه هو شخصيا . . . فاشترى لها شقة في مدينة المهندسين وزحمها بكل الاثاث الذي تختاره بذوقها . . . لقد أصبحت غرفة

النوم التي تضمهما كأنها ركن من متحف عالمي ..

إنه منذ التقى بها وهو ينفق الكثير من أمواله حولها .. ولكن .. إن واجب الرجل يدفعه إلى أن يضع المرأة في مستوى الحياة الذي وصل إليه .. مستوى أصحاب الملايين .. ومأهوا الحب .. أنه تبادل تحمل المسؤولية بينه وبينها .. الرجل يحمل مسؤولية المرأة .. والمرأة تحمل مسؤولية الرجل .. وهو لاشك يحبها ..

وقد دفعه الحب إلى أكثر .. فهي دائما تشكركه من متاعب عملها في السينما .. أن كل الأبواب تفتح في وجهها لأن كل منتج يطمع في الوصول إلى جسدها .. وهي ترفض لأنها متفانية في الإخلاص له .. وبدأ يسأل نفسه لماذا لا ينتج فيلما لها على حسابه .. لم لا .. أن زعيم الاقتصاد المصري طلعت حرب قام ببناء الفن السينمائي والمسرحي بأموال بنك مصر .. فليبدأ هو ببناء منار كنجمة سينمائية وبعدها يستكمل بناء الفن المصري كله ..

ويبدأ يدفع لانتاج فيلم سينمائي .. والواقع أنه لم يكن يتصور أن يدفع كل هذه المبالغ .. أنه لم يدرس عملية الانتاج حتى يتأكد من قيمة ما يدفعه هنا وهناك .. ولعل منار وهي التي تعتبر مسئولة عما يدفعه مضطرة أن تستسلم لكل ما يطلبه المسئولون عن انجاح الفيلم حتى يبدلوا أكثر في إنجاحها .. أنه يدفع حتى للصحف والمجلات التي تنشر صور منار ، والصحفيين الذين يكتبون عنها .. رغم أن ما ينشر لا يحمل صورة الاعلان .. ورغم ذلك يجب أن يتحمل .. أنه مشروع كبير .. وفي كل مساء ينتهي من عمله يذهب إلى منار في الاستديو .. ويستقبل هناك بترحاب واحترام كبير .. وكان يهنا بمتعته وهو داخل الاستديو يتفرج على ما يجري فيه .. إلى أن قالت له منار في ليلة وقبل أن يضمهما الفراش ..

- أصبحت لا أحتمل كلام الناس عني وعنك ..

وقال في دهشة :

ماذا يقولون ؟

وقالت وكأنها تهم بالبكاء :

- انهم لا يعترفون بي كفنانة .. أنا مجرد عشيقه لرجل يرضيني بأن ينتج لي فيلما ..

وقال في حيرة كأنه لم يكن يحسب حساب كلام الناس ..

- وكيف نسكتهم عن الكلام ..

وقالت وهي تسقط وجهها بين كفيها ودموعها تنهمر على خديها :

- ليس هناك إلا أن نتزوج .. أن الكلام عن زوجة غير الكلام عن عشيقه .. ولعل أطلب المستحيل ..

واحتضنها بين ذراعه وقال وهو يضحك كأنه يخفف عنها :

- نتزوج يا حبيبتي ..

وتزوجها فعلا .. ونشر خبر الزواج في الصحف وعرفه كل من يعرفونه ..

ولم يسأل عن زوجته الأولى .. لقد قال لها أن من حقها أن تطلب الطلاق ، وأما أن تعيش زوجة مهجورة .. وقد ترك لها البيت هي وأولادها وأصبحت كل حياته في البيت الذي اشتراه وأثله لمنار ..

ولكن أحداث أحاسيسه تتغير منذ تزوج .. أنه لا يطيق الطلاق زوجته في حرية اتصالها بالرجال .. من يدرى ماذا بناها وبين هذا المخرج ، أو هذا الممثل أو هذا الكاتب .. أن أحاسيس الزوج تختلف من أحاسيس العشيق .. ولكنه يصمت ويتحمل وكما اختلاف مع زوجته ودخل

المحتويات

الصفحة

٢

٣٦

٥٠

٥٩

٧٠

٨٢

٩٢

١٠٩

١٢٢

١٣٩

١٥١

١ - كانت صعبة .. ومغرورة ..

٢ - أحلام ابن الشحاذ ..

٣ - نائم وهو صاح ..

٤ - نوع آخر من الجنون ..

٥ - رأس غير رأسى ..

٦ - هو .. والحمار ..

٧ - وفشلت في الطريق الآخر ..

٨ - الطريق الأقرب ..

٩ - وكأنه مات ..

١٠ - أرى أمي معلقة في أذنيك ..

١١ - البحث عن الشخصية الأخرى ..

مطبوعات

مركز الأهرام للترجمة والنشر

■ كتب للأطفال والنشء

● في مجال العلوم

١ - الموسوعة العلمية الأولى للأطفال

(ترجمة : د. محمد أمين سليمان)

٢ - طرائف والت ديزنى بالكومبيوتر

(ترجمة : د. أيمن الدسوقي)

٣ - سلسلة علماء العرب :

○ ابن النفيس

(مكتشف الدورة الدموية الصغرى)

○ ابن الهيثم (عالم البصريات)

○ البيروني (عالم الجغرافيا الفلكية)

(سليمان فياض)

● في مجال التربية البدنية والرياضية :

٤ - موسوعة جوفى الرياضية :

○ السياحة والغطس

○ الألعاب الأولمبية

○ ألعاب الأطفال

(ترجمة : د. ه. المستكاوي)

● في مجال ترقية المهارات والخيال :

٥ - ألوان ألوان

(حين أبو دبد)